الفصل السادس

تصور الماركسية للنظام الرأسمالى
من النشأة الى الانهيار

المحتويات

مقدمة

أولا : تقسيم العمل الطبقى ، جوهر اشكالية النظام الاجتماعى .

ثانيـا : النظام الرأسمالى ، عناصره الطبقية والاجتماعية .

ثالثـا : الاغتراب ، أصوله وأنماط تجاوزه .

رابعـا : البروليتاريا والانتقال من اللاوعى الى الوعى .

خامسا : النشاط الانسانى والتعبير عن الحتمية الاجتماعية .

سادسا : الثورة البروليتارية ونفى النظام الرأسمالى .

سـابعا : المجتمع الشيوعى واستعادة الكمال الانسانى .

ثامـنا : النظرية الماركسية فى مواجهة متغيرات جديدة .

مقدمة

عرضنا فى الفصل السابق لمجموعة المقولات التى شكلت البناء المنهجى للنظرية الماركسية . وسوف نحاول فى هذا الفصل استعراض القضايا الأساسية المتعلقة بأبعاد النظام الرأسمالى فى وجوده الواقعى أو فى تفاعل عناصره . ونحاول فى هذا الفصل ان نعرض لطبيعة المتغيرات والعلاقات بين هذه المتغيرات فى اطار هذا النظام .

واذا كانت النظرية الماركسية قد امتلكت بناء منهجيا محكما ، فإن تأمل الواقع الاجتماعى كما تصوره النظرية الماركسية يكشف عن تتابع منطقى للتفاعل الكائن بهذا النظام ، وهو التفاعل الذى يتبلور فى مجموعة من العمليات والميكانيزمات ، التى تخضع فى أدائها لقوانين حديدية على مايذهب كارل ماركس ، بغض النظر عن ارادة الأفراد ورغباتهم ، فكل ذلك ليس إلا ظروفا مساعدة ، ولعل أهم العمليات التى عرض لها هى التى تبدأ بتقسيم العمل الاجتماعى أو الطبقى ، ثم الاغتراب ، حيث اختزال الانسان واغترابه ، وتنتهى بالافكار والثورة كمدخل لاستعادة الكمال الانسانى وتحقيقا لاستقرار النسق الاجتماعية . وهو التفاعل الذى نعرض له من خلال القضايا التالية التى تشكل فى مجموعها البناء النظرى للمشروع الماركسى خاصة فى جوانبه السوسيولوجية .

وبرغم تداخل مضامين هذه القضايا فى بناء المشروع النظرى لكارل ماركس إلا أن فصلنا لها من منطق اتاحة الفرصة للتحليل العلمى المجرد ، ويمكن تحديد هذه القضايا فيما يلى :

أولا : تقسيم العمل الطبقى ، جوهر اشكالية النظام الاجتماعى .

ثانيا : النظام الرأسمالى ، عناصره الطبقية والاجتماعية .

ثالثا : الاغتراب ، أصوله وأنماط تجاوزه .

رابعا : البروليتاريا والانتقال من اللاوعى الى الوعى .

خامسا : النشاط الانسانى والتعبير عن الحتمية الاجتماعية .

سادسا : الثورة البروليتارية ونفى النظام الرأسمالى .

سابعا : المجتمع الشيوعى واستعادة الكمال الانسانى .

ثامنا النظرية الماركسية فى مواجهة متغيرات جديدة .

وفيما يلى استعراض موجز لمجموعة الأفكار الرئيسية ، التى طرحها المشروع لماركسى فيما يتعلق بكل من القضايا السابقة .

أولا : تقسيم العمل الطبقى ، جوهر أشكالية النظام

من الواضح ان هناك اتفاقا على ان تقسيم العمل الاجتماعى يعتبر صيغة انسانية شاملة تشير الى انتظام البشر فى واقع اجتماعى معين ، وفى اطار تنظيم انتاجى يتلاءم وهذا الواقع . ويشير أيضا الى طبيعة الطور التاريخى الذى يتجازه هذا الواقع . ومثلما كان للمشاعية البدائية نظامها العشوائى فى تقسيم العمل الاجتماعى ، كان للأطوار المجتمعية التالية أيضا نظامها المتلائم معها .

ومن الواضح وجود خلاف حول قضية تقسيم العمل الاجتماعى ، بين مختلف اتجاهات النظرية السوسيولوجية . وفيما يتعلق بهذه القضية نرى أن الموقف الماركسى يذهب الى ان تقسيم العمل الاجتماعى يعتبر الثمرة المباشرة للتطور الانسانى ، حيث انقسام البشر الى فئتين أو طبقتين متضادتين . يؤكد ذلك مايذهب اليه ماركس ان تاريخ كل مجتمع ليس سوى تاريخ النضال بين الطبقات ، فالحر والعبد ، والنبيل والعامى ، والسيد الاقطاعى والقن ، والمعلم والصانع ، وبالاختصار المضطهدون والمضطهدين . ففى روما القديمة نجد النبلاء والفرسان من ناحية ، ثم العامة والأرقاء من ناحية أخرى ، وفى القرون الوسطى نجد السادة الأقطاعيين يليهم الاتباع ، والمعلمين ثم الصناع ، ثم الأقنان ، بل اننا نجد ان بداخل كل طبقة مكاناتها ودرجاتها الخاصة . وحينما تأسس المجتمع البرجوازى على انقاض المجتمع الاقطاعى فانه لم يقض على التناحر بين الطبقات بل أقام طبقات جديدة بدلا من القديمة ، وأوجد ظروفا جديدة وأشكالا جديدة للنضال . اما مايميز عصرنا الحاضر ، فان البورجوازية جعلت التناحر الطبقى أكثر بساطة ، حيث المجتمع آخذ فى الانقسام فأكثر الى معسكرين هما البورجوازية والبروليتاريا (١٢٣) .

والى جانب ان تقسيم العمل الاجتماعى ينعكس على طبيعة البناء الاجتماعى فان له تأثيره أيضا على الإنسان فى كل من هذه التشكيلات أو الأبنية الاجتماعية . حيث يبدو كل اغتراب للانسان عن ذاته اغترابا فى ذات الوقت عن طبيعة العلاقات التى يفترض وجودها بينه وبين الآخرين من البشر . فى اطار ذلك تصبح تقسيمات العمل المتعددة وأشكال الاستغلال المتنوعة للانسان بواسطة الانسان ، قاهرة ومعوقة للطبيعة الأساسية للانسان من لتعبير عن نفسها فى اطار أى من الأشكال الاجتماعية (١٢٤) . ويعنى ذلك ان تقسيم العمل أحيانا مايتخذ

وضعا يسلم فيه الى انقسام المجتمع على ذاته كمقدمة لانهياره ، حيث يفترض قهر الانسان واختزاله كمقدمة لاغترابه وهو مايشكل محور التنظير الماركسى فى هذا الصدد .

ويكشف النظر الى أسلوب كارل ماركس فى تناول تقسيم العمل الاجتماعى الى ممارسته هذا التحليل بالنظر الى محورين ، يتمثل المحور الأول فى تقسيم العمل داخل المصنع ، أما المحور الثانى فيتمثل فى تقسيم العمل الاجتماعى بشكل عام . ويتطور تقسيم العمل فى كل من المصنع والمجتمع فى اتجاهات متضادة ، فتقسيم العمل فى اطار التنظيم الاجتماعى يستند الى الأساس الفسيولوجى حيث فعل الانتاج يتم بالنظر الى متغيرات النوع والسن كما هو الحال فى العائلة والقبيلة ، ثم يرتقى لكى يصبح على أساس اجتماعى حيث تخضع احدى القبائل قبيلة أخرى ، وتلزمها ككل للقيام ببعض الأعمال الدنيا . ثم يتطور هذا الأساس لكى يصبح اقتصاديا حيث تتخصص المجتمعات فى انتاج معين تتبادله مع المجتمعات الأخرى وفى هذه المرحلة تحدث تباينات متعددة كالتباين الذى يتأسس بين الريف والمدينة [١٢٥] ، والذى يتأسس بين المجتمعات الصناعية ومجتمعات المواد الخام المختلفة . وفى حين يتجه العمل المجتمعى نحو الانتاج الكلى الذى تؤديه وحدة كلية هى المجتمعات التى تتخصص تبادليا على المستوى العالمى الشامل ، نجد ان تقسيم العمل فى المصنع يتجه وفقا لأساس متباين - حيث يتجه الانتاج نحو التخصص من حيث الأدوات وامكانياتها ، ونحو تخصيص وتصنيف البشر حسب قدراتهم الانتاجية . أعنى تطوير ملكة واحدة على حساب الملكات الأخرى . وذلك مادفع فيرجسون A.Ferguson الى التأكيد (اننا بذلك نصنع أمة من العبيد Helots ومن ثم فقد لايصبح لدينا مواطنون أحرار) [١٢٦] . والملاحظ فى هذا الصدد انه بينما يبدأ تقسيم العمل الاجتماعى على المستوى المجتمعى من منطلق فسيولوجى لينتهى بنهايات اجتماعية وانتاجية ، نجد ان تقسيم العمل فى المصنع يبدأ اجتماعيا انتاجيا وينتهى نهاية فسيولوجية حيث يصبح لتقسيم العمل وطأته على البناء الفسيولوجى للانسان ذاته . وذلك يتناقض بلاشك – من وجهة النظر الماركسية – مع القوانين التى ينبغى ان تحكم تقسيم العمل فى شكله المثالى المتحقق فى المجتمع الشيوعى .

ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى فى المصنع أساسا لتقسيم العمل الاجتماعى فى المجتمع بوجه عام ، ويتخذ نقطة بدئه باستخدام عدد كبير من العمال الخاضعين لأمره نفس الرأسمالى الفرد [١٢٧] . غير ان تجمع العمال فى المصنع الواحد يؤدى الى تغيرات هائلة فى نظام العمل ، اذ يؤدى استخدام هذا العدد من العمال فى ذات الوقت الى احداث ثورة فى

الشروط المادية لعملية العمل ذاتها ، حيث تتأسس المبانى التى يعملون بها ومخازن المواد الخام [١٢٨] . والى جانب هذه التغيرات الإيكولوجية التى يحدثها نظام تقسيم العمل البورجوازى فى المصنع ، فاننا نجد أنه يحدث تغيرات واسعة وأساسية فى عناصر عملية العمل ذاتها .

اذ يؤدى تجمع العامل أثناء عملية الانتاج مع الآخرين فى ذات المصنع الى تعاونهم يد بيد لانتاج سلعة واحدة . بيد ان هذا التعاون يتخذ طابع أن نشاط كل عامل يصبح مقصورا الآن على نطاق واحد فقط عليه التكيف معه [١٢٩] . فى اطار ذلك يعاد توزيع العمل ، وبدلا من السماح لكل شخص بانجاز كل العمليات الانتاجية المتتابعة والمتعددة فان هذه العمليات تتجزأ لكى تصبح عمليات منعزلة ومنفصلة يتم انجازها جنبا الى جنب ، حيث يقوم بكل منها صانع منفرد ، وينجز هذه العمليات بصورة معينة وفى ذات الوقت بواسطة مجموعة من العمال المتعاونين . ومن هذا التفتيت للعملية الانتاجية يتطور تقسيم العمل ، ويؤسس ملامحه الخاصة به . ويتحول بالتدريج الى تقسيم منظم للعمل . ومن ثم تتحول السلعة من حيث كونها انتاجا فرديا لعامل مستقل الى كونها انتاجا اجتماعيا لجمع من العمال المنتجين ، حيث يؤدى كل منهم عملية واحدة فقط من العمليات الجزئية المكونة . ومن ثم تصبح كل من هذه العمليات وظائف منعزلة للعامل المنفصل ، فى اطار ذلك يتأسس المصنع الحديث بالنظر الى ركيزتين : الأولى هى تفتيت العملية الانتاجية الى مجموعة من العمليات الجزئية التى يقوم بكل منها عامل منفرد بدلا من كونه كان ينجزها جميعا فى الماضى . والثانية أنه يؤسس تعاونا انتاجيا بين جميع عمال الصناعة الواحدة ، حيث ينجز كل عملية جزئية عامل منفرد بعينه ، وبذلك تتأسس الآلية الانتاجية التى تشكل الكائنات البشرية أجزاءها [١٣٠] . وبذلك يشكل تقسيم العمل نظاما اجتماعيا يسود المجتمع البرجوازى ، وموقفا يسهم فى اختزال نشاط الانسان ، من نشاط كلى تؤديه ملكات متنوعة ، وهو النشاط الذى بدأ به المجتمع الانسانى الى نشاط جزئى لاينتمى اليه وانما ينتمى أساسا الى متطلبات الموقف الانتاجى منه ، وبالنظر الى غاية النشاط الكلى للتنظيم الانتاجى . وفى اطار هذه العملية يتحول العامل من كونه عنصرا مستقلا مسيطرا على مقدرات واقعه يؤدى نشاطا يخدم اشباع حاجاته الأساسية الى نشاط جزئى تابع فى اطار عملية الانتاج البرجوازية ذات الطابع الشامل .

ولضبط الموقف فى اطار عملية الانتاج الصناعى يؤسس نظام تقسيم العمل الاجتماعى الآليات اللازمة لضبط العملية الانتاجية حتى يتحقق الهدف العام للمصنع والبناء الانتاجى بوجه

عام . وفى اطار ذلك يطور النسق البرجوزاى ميكانيزمين أساسيين لضبط العملية الانتاجية داخل المصنع . أما الميكانيزم الأول فهو ذو طابع انتاجى ويتمثل فى بناء السلطة المتدرج الذى يلعب فى نطاقه مجموعة الملاحظين والمديرين دورا بارزا . وفى هذا الصدد يؤكد كارل ماركس ان النظام الضبطى والاشرافى عادة ماتكون له طبيعته القهرية ، اذ يسلم الرأسمالى وظيفته فى الاشراف المباشر على العمال الأفراد ، أو جماعات العمال الى مجموعة متخصصة من المأجورين . حيث تتطلب جيوش العمال الصناعيين الذين يعملون تحت أمرة الرأسمالى جيوشا مماثلة من الضباط (المديرين) والمساعدين (الملاحظين والمشرفين) الذين يأمرون بصوت الرأسمالى أثناء عملية العمل ، حيث تصبح عملية الاشراف وظيفتهم الرئيسية . وتكتسب هذه الوظيفة لضبطية أهميتها من التناقض الكائن بين مصالح كل من الرأسمالى والعامل البروليتارى . وينبثق الميكانيزم الثانى لضبط الموقف الانتاجى من داخل العملية الانتاجية ذاتها . حيث تتركب مختلف مراحل انتاج السلعة الواحدة على بعضها البعض ، بحيث لايتيح أى منها أى قدر من التلكؤ فى أى من مراحل العملية الانتاجية . فاذا كانت عملية الانتاج تنقسم الى مجموعة من العمليات الفرعية ، فان المصنع يكون فى حاجة الى مجموعة من العمال لكى يقوم كل منهم بأى من هذه العمليات الفرعية على حدة ، ففى صناعة حروف الطباعة نحتاج فى الساعة الواحدة الى أربعة سباكين Founders وعدد ٢ مكسر Breakers وملمع واحد Rubber . فكل سباك يصف Casts ٢,٠٠٠ حرف فى الساعة بينما يفصل المكسر ٤,٠٠٠ حرف فى الساعة ، وينجز القائم بالتلميع نحو ٨,٠٠٠ وحدة فى الساعة . وفى هذه العملية نلاحظ تعاونا بمعناه البسيط ، غير ان هذا التعاون يمتلك وحدة عضوية داخلية ، لأن تقسيم العمل فى اطار أداء العمل يخلق علاقة أو معادلة رياضية تنظم المدى الكمى من هذه الأجزاء ، أعنى العدد النسبى من العمال ، أو الحجم النسبى لجماعة العمال اللازمة لكل عملية جزئية (١٣١).

ذلك يعنى أن العملية الانتاجية تمتلك نوعا من الضبط الداخلى يتجه بالأساس نحو اخضاع فاعليته لمتطلبات العملية الانتاجية . ومن ثم فاذا كانت حاجة الانتاج تفرض تطوير العامل لأى من قدراته فقط لحساب الغاء القدرات الأخرى ، فان من متطلبات الانتاج أيضا تقسيم العامل البروليتارى الكلى – مجموع العمال – الى عناصر فرعية تنجز طاقات العمل المطلوبة منها بالنظر الى متطلبات العملية الانتاجية الشاملة . فى اطار ذلك نجد ان العامل خاضع لضبط من داخل التنظيم ومن خارج العملية الانتاجية للانتاج يتأسس وفقا لقواعد

محددة ، وفى ذات الوقت نجده خاضعا لضبط داخلى يتأسس بالنظر الى ضوابط فنية من داخل العملية الانتاجية ذاتها .

فى أعقاب ذلك ينطلق كارل ماركس من تقسيم العمل فى المصنع – كوحدة انتاجية واجتماعية – نحو تتبع خيوطه على الواقع الاجتماعى بكامله . وهو يستند فى هذه الانتقالة الى مفهومى فائض القيمة والكثافة السكانية . وفى اطار مفهوم فائض القيمة يتجه صاحب العمل منذ البداية الى تركيز أكبر عدد من العمال فى أكبر مصنع ممكن بهدف الحصول على أكبر فائض قيمة ممكنة (١٣٢) . غير أنه كنتيجة منطقية لاتجاهه نحو تحقيق هذا الهدف فانه يجمع أكبر عدد ممكن من العمال فى حيز المصنع الضيق ، وفى نطاق ذلك نجد كارل ماركس يدفع بمفهوم الكثافة السكانية كقنطرة يعبر عليها الى المجال المجتمعى الواسع ، وهو هنا يطرحها بمعنى جديد . فالمجتمع الضئيل فى عدد سكانه اذا أضيف اليهم قدر ملائم من وسائل الاتصال يكون أكثر كثافة من مجتمع أكبر فى عدد سكانه وتنقصه وسائل الاتصال الملائمة . وبهذا المعنى تكون الولايات الشمالية للاتحاد الأمريكى أكثر كثافة سكانية من الهند (١٣٣) . وبتكرار الوحدات الانتاجية على خريطة المجتمع ، فاننا نجدها تتجه الى التكامل مرتكزة – على المستوى التحليلى – على عنصرين رئيسيين ، أما العنصر الأول فيتمثل فى قوى الانتاج ، وهى تحتوى على قوى العمل الحقيقية التى تتكون من البشر العاملين ، وهى القوة الاجتماعية التى بواسطتها ينتجون وسائل اشباع حاجات وجودهم الطبيعى والاجتماعى . ومن ثم فهى تضم الى جانب العمال أدوات الانتاج التى يستخدمونها ، وأشكال التعاون التى تفرضها القوى الاجتماعية للمجتمع . وأى شئ يزيد من القوى الاجتماعية للمجتمع ، يزيد من انتاجية قوة العمل البشرى ، وان هذه القوة المنتجة أو الاجتماعية ترتبط بشكل معين من التعاون وبمرحلة اجتماعية محددة (١٣٤) .

وتشكل علاقات الانتاج العنصر الثانى ، وهى العلاقات التى يعتبرها ماركس نقطة البداية فى نظريته عن الطبقات ، بالاضافة الى أهميتها فى نظريته عن الثورة أو التغير الاجتماعى . فى اطارذلك نجده يؤكد ان علاقات الانتاج التى يشارك فيها المنتجون كل مع الآخر ، تشكل الشروط التى يتبادلون بالنظر اليها جهودهم ، ويشاركون فى انجاز النشاط الانتاجى الكلى ، وبالطبع تتغير هذه العلاقات بالنظر الى طبيعة وسائل الانتاج (١٣٥) . ويذهب ماركس الى القول بأنه فى المرحلة الأولى لنمو النسق البرجوازى تسير علاقات الانتاج النمو السريع لقوى الانتاج ، أما فى المراحل الأخيرة لتطور هذا النسق ، فان علاقات الانتاج أو

الثروة تقهر قوى الانتاج وتعوق نموها . وفى مرحلة معينة يصبح نمو القوى المنتجة متوقفا على القضاء على علاقات الانتاج هذه ، ومن ثم يتخلق التناقض داخل الموقف الرأسمالى ، حيث توجد فى اطاره عناصر عديدة متضادة بعضها مع البعض ، بل ان الكثير منها يتناقض مع ذاته . فالطبقة البروليتارية تنجز عملها الانتاجى بوسائل انتاج لاتملكها ، ولكنها تستخدمها بهدف انجاز عمل يولد فائض قيمة يدعم التراكم الرأسمالى للطبقة البرجوازية – التى لاتؤدى عملا سوى السيطرة على الموقف وتنظيمه من خلال تقسيم العمل – ومن ثم فهى تستوعب نتاج عمل البروليتاريا ، ومن أجل السيطرة على الموقف فانها تخلق بناء تنظيميا يتضمن عديدا من المكانات ، كالعالم ورجل الدين ، والمشرف أو الملاحظ ، بحيث يسهم الجميع من خلال جهودهم ذات الطبيعة الضبطية فى ضبط النشاط الانتاجى بما يحقق عائدا لرأس المال البرجوازى وتحقيقا أكثر لمصالحه .

بذلك فاذا كان تقسيم العمل عند كارل ماركس قد بدأ مشاعيا كليا يتوجه ناتج العمل فيه نحو اشباع حاجات الانسان ، فانه قد انتهى فى الشكل الرأسمالى لكى يصبح متخصصا يخضع لنوع من الضبط السيرنطيقى المحكم ، ويحقق أهدافا لاتنتمى الى الانسان الذى تحمل عبء العمل ولكن الى العناصر الكائنة فى الموقف الاجتماعى ، وهو بذلك يعكس الشكل السائد لتقسيم العمل الاجتماعى .

ثانيا : النظام الرأسمالى ، عناصره الطبقية والاجتماعية

يعتبر الموقف الاجتماعى من وجهة النظر الماركسية هو الاطار الذى يحتوى على تفاعل له طابعه الدينامى بين مختلف العناصر التى تشكل جوهر النظام الرأسمالى . فالعمل الذى ينجز فى اطار هذا الموقف من حيث غايته وعناصر انجازه والشروط التى تحكمه تخضع لفاعلية الحتمية الجدلية التى حكمت مبادئها طبيعة التصور الماركسى للواقع والتفاعلات بين عناصره . ومنذ البداية يؤكد جون ماكليش تضمن الموقف الرأسمالى لتناقضات عديدة ، كالتناقضت بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج ، والتناقض بين الأساس الاقتصادى والبناء الفوقى الأيديولوجى ، ثم التناقض داخل البناء الأيديولوجى ذاته ، حيث يجب علينا ان ندرك فاعلية قانون التناقض الجدلى داخل مجال التفكير البشرى ذاته (١٣٦) . ولادراك طبيعة الموقف الاجتماعى فى اطار النظام الرأسمالى نرى ضرورة التعرض لطبيعة التفاعل فى هذا الموقف ، ثم لعناصر التفاعل ، ثم للشروط الموقفية الحاكمة لهذا التفاعل ، حيث نختم هذا الفهم بتحديد بناء القوة فى اطار الموقف الرأسمالى .

وفيما يتعلق بالنشاط الانتاجى كعنصر جوهرى فى بناء الموقف الرأسمالى ، نجد ان نشأة المجتمع وتطوره – وفقا لما يذهب اليه كارل ماركس – كان نتيجة للتفاعل الانتاجى المستمر بين البشر والطبيعة . حيث بدأ البشر يميزون أنفسهم عن الحيوانات فى اللحظة التى استطاعوا خلالها انتاج وسائل حياتهم (١٣٧) ، فانتاج واعادة انتاج الحياة ضرورة فرضتها الحاجات البيلوجية للكائن العضوى البشرى ، وماهو أكثر أهمية يعتبر المصدر الخلاق للحاجات والقدرات الجديدة ، وبذلك يعتبر النشاط المنتج هو أساس المجتمع بمعناه التاريخى والتحليلى ، اذ يعتبر الانتاج هو النشاط التاريخى الأول وانتاج الحياة المادية هو الشرط الأساسى لكل التاريخ (١٣٨) . اذ يقوم كل انسان من خلال أفعاله اليومية ، بخلق واعادة خلق المجتمع فى كل لحظة . وفيما يتعلق بطبيعة النشاط المتضمن فى الموقف الرأسمالى نجد ان كارل ماركس يقدم نموذجين للنشاط الاجتماعى ، حيث ينتمى أحد هذه المناشط للانسان المغترب الذى قهرت طبيعته التعاونية والعقلانية أما النمط الثانى للنشاط فيمثل التعبير الحر للطبيعة الانسانية الحقيقية فى ظل شروط ينتفى فيها القهر والسيطرة . ويظهر هذا الشكل الأخير لنشاط أو العمل كمقدمة للأول الذى يظل سائدا حتى تحقق المجتمع الشيوعى ، وحيث النشاط الذى يعبر عن الطبيعة الحقيقية للانسان ، ومن الواضح أنه ليس تناقض فى رؤية ماركس لطبيعة النشاط الانسانى بقدر كونه يعكس سياقا تاريخيا محددا (١٣٩) .

والى جانب إعتقاد كارل ماركس فى حتمية هذه النشاطات سواء من حيث وقوعها أو من حيث تتابعها التاريخى ، فانه اعتقد ان بعضا من هذا التطور الحتمى يخضع لجهود البشر العقلانية ذات الطابع الطبقى . يؤكد ذلك أنه اذا كانت الطبيعة البشرية فى البداية ذات طابع تعاونى وعقلانى ، فانه فى مرحلة تالية حيث المجتمع منقسم الى طبقات وحيث البشر موزعين فى مراكز متباينة تفرض عليها ضرورة السعى لتحقيق مصالح وقيم متباينة بمستوى من العقلانية المحكومة بشروط الموقف أو بالوعى الزائف بالمواقف (١٤٠) التى ينجز فى اطارها العمل . بالاضافة الى ذلك فانه اذا تميزت المرحلة التعاونية للعمل أو النشاط بالطابع العائلى فان المرحلة الصراعية تميزت بالطابع الطبقى والسياسى .

وقد انسحبت طبيعة النشاط على طبيعة الموقف الاجتماعى ذاته ، ففى مراحل التاريخ الأولى كان الانسان قادرا على ان يحيا حياة طبيعية ، لها خاصيتها التعاونية ، حيث يتحقق للانسان نوع من الاكتفاء الذاتى . فى هذه المرحلة لم يكن البشر مقيدين بواسطة علاقاتهم بالآخرين ، غير ان هذه المرحلة التلقائية قد انهارت حينما استولت قبيلة على قبيلة أخرى

وأسست بذلك أول شكل من أشكال التباين الاجتماعى ، وظهرت لأول مرة فى التاريخ المصالح المتضادة فى الموقف الاجتماعى ، وعلاقات الصراع بين أطراف هذه المصالح (١٤١) .

وفيما يتعلق بأسلوب الانتاج نجد تميز هذه المرحلة بأسلوب الانتاج الشامل ، حيث ساد التعاون خلال هذه الفترة ، ولعب رأس المال الخاص وتقسيم العمل دورا ثانويا للغاية (١٤٢) . ويمكن القول ان مجتمع ماقبل الرأسمالية كان يتشكل من خليط من الوحدات المتجانسة (١٤٣) ، حيث لاتظهر العلاقات الاقتصادية فى مثل هذا المجتمع كعلاقات سوق بشكل واضح ، بل ان علاقات السيطرة والخضوع تختلط مع الروابط أو العلاقات الشخصية بين الأفراد . وعلى ذلك تؤدى سيطرة مالك الأرض الاقطاعى دورها من خلال الارتباطات الشخصية للعبودية ثم الدفع المباشر للضريبة tithes ، وفضلا عن ذلك فخلال هذه المرحلة كان للقن قدر من السيطرة على وسائل الانتاج بالرغم من حقيقة أن عليه ان يتنازل عن جزء من انتاجه كاتاوة tribute لسيدة (١٤٤) . ويؤكد كارل ماركس ان هذا الموقف قد تطور الى مرحلة تعد مقدمة للنظام الرأسمالى ، فقد أدى تجمع عدد هائل من العمال لينتجوا نفس السلعة تحت اشراف صاحب رأس المال إلى تشكل نقطة البدء التاريخية والمنطقية لنظام الانتاج الرأسمالى (١٤٥) .

ويحدد كارل ماركس الشكل التاريخى التالى للموقف الانتاجى ، القائم فى المجتمع الرأسمالى ، اذ يذهب ماركس الى القول انه بحلول الرأسمالية التى تعتمد على تجريد جماهير العمال من ممتلكاتهم ، هؤلاء العمال الذين ليس لديهم شئ يدخرونه سوى قوة عملهم يتبادلونها من أجل الحصول على وسائل الحفاظ على حياتهم ، بذلك تبدو علاقات السوق محتمة للنشاط البشرى المنتج ، ومما لاشك فيه ان المجتمع البرجوازى قد مزق الروابط الاقطاعية المتعددة بلا رحمة ، تلك التى ربطت الانسان بكل من هم أعلى منه his superiors ، ولم يترك أى نوع من العلاقات بين الانسان والانسان سوى المصلحة الشخصية (١٤٦) . ولقد أصبحت العلاقات الطبقية فى اطار المجتمع البرجوازى أكثر شمولا وبساطة . اذ يميل التطور المطرد للرأسمالية ، بمجرد ان يتأسس ، نحو خلق طبقتين متضادتين فى اطار السوق ، البرجوازية والبروليتاريا . أما الطبقات الأخرى التى قد توجد فى الموقف – ملاك الأرض ، البرجوازية الصغيرة ، الفلاحين – فهى طبقات انتقالية تستوعب بواسطة أى من الطبقتين الأخريين الكبيرتين (١٤٧) . وتتطلب محاولة فهم موقف الانتاج الرأسمالى التركيز على مكونات رئيسية ثلاث ، أولها الانسان والآخر كعناصر – فى الموقف – تهدف الى انجاز الانتاج ، وثانيهما هو الشروط الموقفية للنشاط أو الانتاج ، ثم بناء القوة فى اطار الموقف الاجتماعى .

ويشكل الانسان والآخر عناصر التفاعل فى الموقف الرأسمالى ، ويؤكد ماركس ان الانسان قد يكون فردا بيولوجياً فى حالة أدائه لدور اجتماعى الى ان الطبقة عادة ماتكون هى الكيان الرئيسى فى الموقف الرأسمالى . غير اننا نجد ان ماركس منذ البداية يذهب الى ان الأفراد بدون العلاقات فى الموقف الاجتماعى لايشكلون طبقة ، ويذهب الى ان صغار الفلاحين يشكلون كتلة عريضة ، حيث يعيش أعضاؤها فى اطار شروط متماثلة ولكن بدون ان يدخلوا فى علاقات متنوعة كل بالآخر ، اذ يعزلهم اسلوبهم فى الانتاج كل عن الآخر بدلا من ان يجمعهم فى اطار تفاعل متبادل . وقد يحقق الظرف الذى تعيش فى نطاقه ملايين العائلات فى ظل وجود له ظروفه الاقتصادية التى تعزل اسلوبهم فى الحياة ، ومصالحهم وثقافتهم عن نظائرها فى الطبقات الأخرى ، ومن ثم يضعهم ذلك فى نوع من التناقض مع الآخرين الذين يشكلون طبقة . غير انه مادامت مصالحهم لاتولد أى مجتمع محلى ، ولا أى روابط بينهم ، ولا أى تنظيم سياسى يجمعهم ، فانهم بذلك لايشكلون طبقة (١٤٨) .

فالموقف الرأسمالى الناضج على مايذهب ماركس يتضمن طبقتين هما البرجوازية والبروليتاريا ، ويؤكد ماركس ان هناك شروطا تاريخية عديدة تؤدى الى تخلق هذا الموقف الناضج . فى اطار ذلك يؤكد ماركس على ان طريقة الانتاج الرأسمالى هى شكل خاص لانتاج السلع ظهر فى ظل ظروف (التراكم الأولى) . كطرد الفلاحين من أراضيهم ، وتحويل الأراضى الصالحة للزراعة الى مراع تقدم الصوف اللازم لصناعة المنسوجات النامية ، وتراكم مقادير كبيرة من الثروة عن طريق نهب المستعمرات ، وانهيار نظام الطوائف الحرفية عندما واجه قوة التاجر وصاحب المصنع ، بحيث أدت هذه العملية الى ظهور العامل الحديث المتحرر من اعتماده على السادة الاقطاعيين والمعلمين الحرفيين وان كان محروما فى مقابل ذلك من الوسائل والأدوات التى يمكنه الانتفاع بها من قوة عمله لتحقيق أغراضه الخاصة (١٤٩) . وبذلك تحققت الشروط الأولية للرأسمالية عمل مأجور حر وملكية خاصة لوسائل الانتاج (١٥٠) .

ومن الواضح ان الموقف الذى يطرح تصورا ثنائى الطبقة dichotomous Class conception يظهر فى الكتابات الماركسية كنوع من التأسيس النظرى . بينما تظهر كل المجتمعات الطبقية التاريخية نسقا من العلاقات الأكثر تعقيدا والذى نجد مثيلا له فى المجتمع البرجوازى حيث نجد ثلاثة أنواع من التجمعات التى توجد فى ذات الموقف الاجتماعى بالاضافة الى الطبقتين الرئيسيتين ، ويمكن ايجاز أهم هذه التجمعات فيما يلى :

١ – الطبقات الهامشية ، ورغم ان هذه الطبقات تؤدى دورا اقتصاديا وسياسيا هاما فى الشكل القائم للمجتمع ، اذ تتشكل هذه الطبقات من مجموعة علاقات الانتاج التى إما أن تكون قد تم تجاوزها أو على العكس ماتزال فى حالة صعود (١٥١) . ومثال على النمط الطبقى الأول جماعة الفلاحين المتحررين free peasantry التى مازالت قوية فى فرنسا وألمانيا ، حيث عليهم الاتجاه اما بالاعتماد على الفلاحين الرأسماليين ، أو الارتباط بالبروليتاريا الحضرية (١٥٢) .

٢ – الشرائح التى تكون فى علاقة اعتماد وظيفى مع أى من الطبقات ، والتى تميل بالتالى للانحاد سياسيا مع هذه الطبقة . وهؤلاء هم الذين يسميهم ماركس ضباط العملية الانتاجية ، ويقع فى اطار هذه الشريحة العاملين بالادارة الصناعية من الفئة الادارية العليا (١٥٣) .

٣ – وتضم الفئة التالية من هذه التجمعات clusters عديدا من الأفراد المتباينين الذين يسميهم بحثالة البروليتاريا Lumpen proletarian ، حيث تقف هذه الفئة على هامش النسق الطبقى ، وذلك لأنهم ليسوا متكاملين بدرجة كاملة فى اطار تقسيم العمل ، وتتكون هذه الفئة من اللصوص ، والمجرمين من كل الأنواع ، وهم يعيشون على فضلات المجتمع ، وهم البشر الذين بلا حرفة محددة ، والمتشردين Vagabonds ، والذين يعيشون بلا مأوى أو منزل (١٥٥) .

ويفرض وجود هذه الشرائح الطبقية وجود بشر على هامش التفاعل الاجتماعى ، بحيث يشير وجودهم الى عدم نضج الموقف الطبقى الرأسمالى ، الذى يحقق مستويات أكثر نضجا حينما يؤدى الأفراد أدوارهم بالنظر الى الوعى بطبقتهم . ويشير ماركس الى هذا الموقف بمصطلحين ، هما مصطلح الطبقة فى ذاتها Class for it self والطبقة لذاتها Class in it self . وفى كل هذه الأوضاع الطبقية يعيش الانسان وهو الفرد البيولوجى فى ظل أوضاع طبقية متجانسة وأفكار وعلاقات تكاد تكون متقاربة . ولكن الخلاف الوحيد يكمن فى ان حالة الطبقة فى ذاتها تفتقد الوعى بأى مصالح مشتركة أو ملموسة يعبرون عنها ، ومن ثم قد يؤدى وجودها الى التوحيد بينهم ، أو تفرض عليهم التصرف كوحدة ، كما لو كانوا شخصا واحدا ، وتبدأ الطبقات فقط فى التصرف لذاتها حينما تؤسس مثل هذه الأهداف المشتركة . ويؤكد ماركس أنه من خلال عملية الصراع تتحقق حالة الطبقة لذاتها ، حينما تتوحد الكتلة الطبقية من خلال تأسيس أيديولوجيا ملائمة ، أو من خلال تطويرها فهم مشترك لموقفها (١٥٥) . ومن ثم

تنتقل من طبقة فى ذاتها الى طبقة لذاتها ، حيث تصبح المصالح التى تدافع عنها مصالح طبقية فى شكل أكثر كمالا ونضجا (١٥٦) . ويذهب ماركس الى أنه بوضوح ادراك الطبقة لذاتها فانه يلزم لتحديد هويتها كعنصر فى الموقف الاجتماعى ضرورة تحدد مسألتين : الأولى ان الموقف الطبقى يتشكل فى جانب منه بواسطة علاقات وجهود البشر وادراكهم الذاتى لعلاقاتهم بوسائل الانتاج ، فى اطار ذلك فان العوامل الاقتصادية الموضوعية المستقلة عن الفهم الذاتى للانسان – والتى تسهم جزئيا فى تشكيل الموقف الطبقى – تصبح مجرد أحد أبعاد الموقف الطبقى . أما المسألة الثانية فتتحدد بوجود نوعين من المصالح التى يمكن التمييز بينهما تحليليا بالنظر الى الطبقة الواحدة ، النوع الأول مصالح أعضاء الطبقة كأفراد والثانى مصالحهم كطبقة (١٥٧) .

وفى أعقاب توضيح ماركس لأسلوب تشكل الطبقة فى اطار الموقف الاجتماعى يتجه نحو توضيح أسلوب تخلق الطبقات المتعددة فى اطار هذا الموقف . وفيما يتعلق بهذه الحقيقة نجده يمارس التحليل مستشهدا بالحقائق الواقعية . اذ يؤكد انه بالنظر الى الظروف التاريخية التى مهدت لنشأة الرأسمالية نجد ان البرجوازية – الساعية الى تحقيق الربح وتراكم رأس المال – اتجهت الى الصدام الحتمى فيما يتعلق بمصالحها التقليدية بالطبقة الارستقراطية بقيادة الملوك – حيث وقع ذلك خلال الثورة الفرنسية . وبذلك أصبحت البرجوازية العنصر الرئيسى فى الموقف الاجتماعى ، واذا كان نمو البرجوازية قد أدى الى نفى الارستقراطية فقد اتجهت البرجوازية أثناء نضجها الى التخليق التدريجى للبروليتاريا ، التى كان أفرادها فى البداية منعزلين متجنبين بيع انتاجهم فى سوق العمل . غير أنه باتجاه البرجوازية نحو توسيع مصالحها فى الموقف الاجتماعى ، اتجه أعضاؤها الى بناء المصانع الكبيرة التى تستخدم عمالا أكثر فأكثر ، تلك التى حرص البرجوازى على تخفيض أجورها من أجل حد أقصى من الربح . ولقد أدت النتائج المتراكمة لهذه العملية الى تخليق طبقتين اجتماعيتين كبيرتين فى الموقف الاجتماعى هما البرجوازية والبروليتاريا (١٥٨) . بذلك تضمن الموقف الرأسمالى طبقتى، البرجوازية والبروليتاريا ، الذى تأسس بينهما نوع من تقسيم العمل ذو طبيعة تبادلية حيث الناتج المتخصص لأحدى الجماعات تستفيد منه الجماعة الأخرى (١٥٩) . بذلك نجد انه حينما تتفاعل البروليتاريا مع (الآخر) البرجوازية ، فاننا نجد ان نتاج التفاعل يكون عادة لصالح البرجوازية ذات المصالح المتباينة ، والتى لها سيطرتها على وسائل الانتاج ، ومن ثم فهى المتحكمة فى الموقف الاجتماعى بينما العامل منفصل عن أدوات انتاجه يخضع لها ويؤدى دوره فى إطارها (١٦٠) .

ويتحدد مضمون التفاعل بين البرجوازية والبروليتاريا من خلال موقف يتبادلان فيه سلعا ، حيث كل منهما حر فى ان يتبادل السلع التى يملكها . واذا كانت البرجوازية قد مارست هذه الحرية عندما استخدمت ثروتها فى تملك وسائل الانتاج والانتفاع منها ، فان الجماهير – البروليتاريا – تمتعت هى الأخرى ببيع السلعة الوحيدة الباقية لديها ، وهى قوة عملها . وهما يتعاملان كل مع الآخر على أساس تساوى حقوقهما ، مع فارق واحد ، هو ان أحدهما مشتر بينما الآخر بائع ، ومن ثم فكلاهما متساو فى نظر القانون (١٦١) . غير ان السلعة التى تبيعها البروليتاريا – قوة العمل – سلعة من نوع خاص ، فهى السلعة الوحيدة التى تكون قيمتها الانتفاعية مصدرا للقيمة فقط ، بل لقيمة أكثر مما فيها ، هذه (القيمة الفائضة) ، التى يخلقها العمل الكلى المجرد المختفى وراء صورته العينية ، تعود على مشترى قوة العمل دون أى مقابل ، مادامت لانظهر بوصفها سلعة مستقلة . ويستطرد ماركس مؤكدا ان انتاج السلعة أى قوة العمل ، يقتضى جزءا من يوم عمل ، على حين ان العامل يشتغل بالفعل يوما كاملا . فالقيمة التى يدفعها الرأسمالى جزء من القيمة الفعلية لقوة العمل المستخدمة ، على حين ان الجزء الآخر من هذه القوة يعود على الرأسمالى دون أن يدفع شيئا (١٦٢) . اذن فالطابع المزدوج للعمل هو الذى يجعل فائض القيمة ممكنا . ونتيجة لاتخاذ العمل هذا الشكل المزدوج ، فان التملك الخاص بقوة العمل يؤدى حتما الى الاستغلال ، وهذه النتيجة تنجم عن نفس طبيعة العمل كلما أصبحت قوة العمل سلعة (١٦٣) . وبذلك تصبح قوة العمل هى العامل الوحيد الذى يزيد من قيمة ناتج العمل الى ما يتجاوز قيمة وسائل الانتاج . وهذه الزيادة فى القيمة تحول نواتج العمل الى عناصر مكونة لرأس المال ، ومن ثم فان العمل لاينتج استغلاله الخاص ، بل ينتج أيضا وسائل استغلاله ، أعنى رأس المال (١٦٤) .

فى اطار ذلك تنشأ علاقة غير متوازنة بين العامل البروليتارى وصاحب العمل البرجوازى، بالنظر الى مجموعة من التوقعات المشتركة . حيث العامل البروليتارى يعطى المالك البرجوازى نتاج عمله اليومى ويتوقع منه المقابل المعادل ، بينما نجد ان المالك البرجوازى يتوقع من البروليتارى أكثر من عطائه له . ويصبح من نتاج هذه العلاقة غير المتوازنة ، أن الحرمان يصبح شرطا مفروضا من قبل البرجوازية وله وطأته على البروليتاريا . من هنا تتبدى ادانة ماركس للنسق الرأسمالى الذى يحيل الانسان الى حيوان عامل متوحش ليس لديه سوى حاجاته الجسدية المحدودة . ومن ثم تختزل الحاجات البشرية الى المستوى الفيزيقى . وربما يتجاوز ذلك حيث يصبح البشر محرومين ليس فقط من اشباع حاجاتهم البشرية ولكن الحيوانية أيضا (١٦٥) . ويكون من نتاج هذا التفاعل وجود تباين فى رؤية ومصالح كل من

البروليتاريا والبرجوازية . وإذا كانت البرجوازية تسيطر على مصادر التفاعل ومجالاته ، فبالاضافة الى تملكها لوسائل الانتاج فانها تحاول فرض أفكارها وعلاقاتها على مؤلاء الذين لايملكون شيئا (١٦٦) . هذا فى حين ان العامل البروليتارى يجد نفسه مجبرا على ان يرى مختلف الارتباطات التى تحيط بها ، تقيده وتستغله ، كالطبقة التى يواجهها فى المصنع أو الدولة . ومن خلال فهمه الكامل لموقفه الطبقى ، فان مصالحه تبدأ فى اكتساب الطابع العقلى ، فلكى يصبح حرا ، ومن ثم تكون له سيطرته الكاملة على مصالحه ، فانه قد لايطلب أجرا مرتفعا فقط ، ولكنه يتجه الى ان ينتظم ورفاقه الذين معه فى نفس الموقف الطبقى ، ومن ثم تبدأ مرحلة الصراع السياسى ، الذى كان كامنا فى مرحلة سابقة ، إلا أنه أصبح واضحا وصريحا فى المرحلة التالية (١٦٧) . فى أثناء ذلك ينجز العمال دورهم كطبقة ، حيث يتجهون الى تحرير القوى الممكنة الموجودة فى العمل الاجتماعى بواسطة الفعل الثورى ، وبهذا المعنى تصبح ثورة البروليتاريا عملا بناء لأنه تحرير للانتاجية الاجتماعية من القهر الذى تفرضه علاقات الانتاج الرأسمالية(١٦٨) .

معنى ذلك ان فائض القيمة وان كان عنصرا اقتصاديا فانه يتحول لكى يصبح عنصرا اجتماعيا يحكم طبيعة العلاقات التى طرأت على الموقف الرأسمالى الذى إكتسب هو الآخر طبيعة اجتماعية . ويتحقق ذلك من خلال نظرة البرجوازية الى النشاط الاقتصادى من خلال كونه مدخلا الى تحقيق فائض القيمة ، بل ان ارتفاع فائض القيمة يعتبر فى حد ذاته برهانا على مدى عقلانية هذا السلوك الاقتصادى . فى اطار ذلك يتجه الرأسمالى الى استخدام أكثر من عامل تحت امرته (١٦٩) ، وبذلك تخلق البرجوازية البروليتاريا كطبقة اجتماعية تولدت عن سلوك اقتصادى .

بيد اننا نجد على الطرف المقابل ، أن للبروليتاريا صلتها هى الأخرى بالنشاط الاقتصادى ، اذ أنه من خلال هذا النشاط يتولى العامل البروليتارى خلق كل الواقع المحيط به ، ومن ثم فهو يتجسد من خلال العمل خارج ذاته . ومن الواضح ، على مايذهب ماركس ، أنه كلما انفق العامل ذاته من خلال النشاط الاقتصادى ، كان العالم الموضوعى الذى يخلقه مغتربا عنه ، ومضادا له . وذلك يعنى أنه اذا كان العامل قد حول حياته الى موضوع له وجوده الخارجى فى الواقع الاجتماعى ، فان استمرار ذلك يعنى ان هذا الشئ الذى خلقه لم يعد ينتمى اليه بل أصبحت حياته تابعة لهذا الشئ (١٧٠) . بذلك نجد ان ظروفا جديدة قد حدثت ، حيث تولى العامل فى البداية خلق الواقع الذى يعكس ذاته من خلال نشاطه الاقتصادى ، الا

ان افتقاده لملكية وسائل الانتاج ورأس المال حوله الى تابع يجيب احتياجات الواقع منه . فى اطار ذلك تفقد الذات سيطرتها على الموضوع – سواء كانت هذه الذات برجوازية أو بروليتارية – ويفقد الانسان ارادته التى خلق على أساسها الواقع ، وتصبح للواقع آلياته الحتمية التى تفرض فاعليتها على العناصر المكونة للواقع وعلى طبيعة التفاعل بين هذه العناصر . وإستمراراً لآليات الموقف نجد ان كل طبقة من هذه الطبقات تخلق امكانيات فنائها رغما عنها .

وتشكل شروط الموقف الرأسمالى مكونا أساسيا آخر فى اطاره . وفى محاولة التعرف على طبيعة الشروط الموقفية هذه نجد ان كارل ماركس يرى انقسام ظواهر الموقف الاجتماعى الى نموذجين من الظواهر . المجموعة الأولى ذات طابع حتمى ، وتشكل أساس الموقف الاجتماعى ، فى اطار ذلك نجد ان الجدل الماركسى يؤكد سيطرة القوى الاقتصادية العمياء على مجرى المجتع (١٧١) . بحيث تشكل هذه القوى مجموعة الظواهر الاقتصادية أو الأساس المادى والاقتصادى للمجتمع ، وبالتحديد وسائل الانتاج التى تشكل العنصر الجوهرى فى البناء الاقتصادى ومن ثم الاجتماعى . أما المجموعة الأخرى من الظواهر ، فهى تلك الخاضعة لحتمية المجموعة الأولى ، وهى وان كانت خاضعة بصفة مبدئية لها إلا أن بامكانها ان تقود نوعا من التطور المستقل ، فالأساس الاقتصادى يحدد البناء الفوقى فى شكله الأساسى فقط وليس فى كل مرحلة من مراحل التطور الواقعى (١٧٢) . ومع ذلك فثمة اجماع على ان الأساس الاقتصادى هو الذى يحدد طبيعة المواقف الاجتماعية على مايذهب كوهين مثلا (١٧٣) . وان الانسان هو حلقة الصلة بين فاعلية الأساس المادى والأشكال الثقافية والأيديولوجية التى يتولى العقل البشرى تأسيسها فى الموقف كانعكاس للواقع المادى (١٧٤) . وتسليما بفاعلية الأساس المادى وتحكمه فى مجموعة التفاعلات الكائنة فى الموقف الاجتماعى ، نرى أنه يمكن ان ننسب اليه ثلاثة تأثيرات أساسية فى اطار الموقف الاجتماعى .

ويتمثل أول مظاهر التأثير هذه فى كون الأساس المادى يؤدى دور المتغير المستقل ، بحيث أن أى تغيرات فى الأساس المادى للموقف تؤدى الى تغيرات شاملة تنعكس أثارها بشكل أساسى على البناء الفوقى والأهداف أو المعايير المشتقة منه . بالاضافة الى ذلك فان للأساس المادى تأثيره القهرى على الانسان فى النظام الرأسمالى ، يتضح ذلك أنه اذا كان الأصل هو سيطرة الانسان على وسائل الانتاج واخضاعها له ، فان آليات الموقف تجعل الفرد خاضعا لها ، ومن ثم تتحول من كونها وسائل فى متناوله الى شروط موقفية يخضع لتأثيرها . ولايتولى

الأساس المادى قهر العامل البروليتارى فقط ولكن نجده يحدد علاقته بالآخر ، بروليتريا كان أم برجوازيا . حيث يخضع الاثنان لعدة اغترابات تسهم فى مجملها فى اختزال كل منهما الى جزئية تابعة للعملية الاجتماعية التى هى مادية فى أساسها ، وليس الى وحدة كلية تمتلك ممكنات ضبط الموقف والسيطرة عليه . ففى اطار الموقف الرأسمالى يتبدى عجز العامل البروليتارى فى عدم قدرته على فرض ارادته على مكونات الموقف أو التغيير فيها . وقد تتبدى امكانية التغيير سهلة فى الاطار الثقافى والأيديولوجى ، بشرط أن يكون ذلك انعكاسا لتغير أساسى وقع فى الأساس المادى ، ومن ثم يصبح الدور الذى قام به الانسان مجرد دور ثانوى مساعد . غير ان ذلك لايعنى ان الجوانب المادية هى الشروط الحاكمة للموقف فقط ، وانما يتحقق للبناء الأيديولوجى قدر من الاستقلال بمجرد تخلقه ، وقد يتحول شرط حاكم فى الموقف له نفس قدرة الجوانب المادية ، يؤكد ذلك مايذهب اليه لينين حينما يعين للأفكار شرف المكانة التى للقوى المادية . اذ يقول ان النظرية تصبح قوة مادية حينما تسيطر على الجماهير . وحينما أكد ماركس على أولوية العلاقات الاقتصادية بينما الأفكار والمشاعر مشتقة منها ، فانه لم يكن يعنى أن الأخيرة ليست هامة . بل انه لم يستبعد امكانية قيام تفاعل مزدوج بين الاقتصاد (الأساس الانتاجى) والأفكار (البناء الفوقى الأيديولوجى) (١٧٥) .

خلاصة القول ان الموقف الرأسمالى يتضمن شروطا حاكمة لها تأثيرها المظم لتفاعله والضابط لعلاقاته ، بحيث نجد ان أكثر الشروط فاعلية هى الشروط المادية المتمثلة فى وسائل الانتاج . والتى الى جانب تحكمها فى تفاعلات وعلاقات الموقف ، تتولى تخليق الأيديولوجيا والأفكار من خلال البشر كانعكاس للشروط المادية ، لكى تساعد هذه بدورها - بإعتبارها العامل المساعد - فى ضبط الموقف ، بيد أنه فى أعقاب تخلق البناء الأيديولوجى قد يتحول الى شرط حاكم للموقف له نفس قوة الشروط المادية على مايذهب لينين ، بل ان هذا البناء الأيديولوجى قد يصبح الشرط الأساسى الحاكم للموقف كما هو الحال فى أعقاب الثورة البروليتارية حينما يتولى وعى البشر الموضوعى تنظيم واقعهم .

فى هذا الصدد نلاحظ أيضا ان شروط الموقف الاجتماعى مادية كانت أو أيديولوجية ليس لها نفس الوطأة أو التأثير المتساوى بالنسبة لكل من الانسان البروليتارى أو البرجوازى فى الموقف الرأسمالى وانما هى تعمل لصالح الأخير على حساب قهر الأول واختزاله وتغريبه . ومن ثم فانه كان منطقيا وفقا لما يذهب اليه المشروع الماركسى ان يتجه الجهد البروليتارى الثورى فى محاولته لاعادة تنظيم الموقف الاجتماعى وعلاقاته الى الغاء شروط الموقف الحاكمة له ، أو

على الأقل إلغاء سيطرة البرجوازية عليه ، أو تحويل الانسان البرجوازى لكى يحيا ذات ظروف العامل البروليتارى .

ويشكل بناء القوة عنصر الضبط والسيطرة المنظمة لتآزر عناصر الموقف الرأسمالى بما ييسر انجاز النشاط الاقتصادى وتحقيقه لهدفه . ويتضمن بناء القوة فى الموقف الرأسمالى ثلاثة عناصر أساسية ، يتمثل العنصر الأول فى الأيديولوجيا ، والثانى فى الدولة ، أما الثالث فهو القانون . ونعنى بالأيديولوجيا مجموعة القيم التى تنظم التفاعل الاجتماعى والتى يعمل وفقا لأفكارها نسق السلطة المتدرج . ويذهب ماركس الى أن الأيديولوجيات أو القيم الأساسية التى تسود المجتمعات البدائية أو النوعية المتقدمة عادة ماتكون ذات طبيعة اتفاقية . حيث لاتطاع القيم لمجرد الاتفاق عليها ، ولكن لأنها أصبحت موضع موافقة إرادية من قبل الآخرين الذين يعملون وفقا لها . وهم يعملون وفقا لها لأنهم يرغبون فى ذلك وليس لأنهم مجبرون على الارتباط بها ، فالقيم على هذا النحو ذات طابع حتمى بالنسبة للفرد حتى قبل ان يولد (١٧٦) . وفى اطار المجتمع الرأسمالى نجد نوعين من القيم ، القيم ذات الطابع الاتفاقى وهى التى تسود داخل كل جماعة من جماعات المجتمع الرأسمالى . فالبرجوازية تسودها قيم اتفاقية يتم استيعابها من خلال التنشئة القهرية ، وتعتنق البروليتاريا ذات القيم التى تشكل وعيا زائفا بالنسبة لها . ويؤكد ماركس ان الطبقة المسيطرة عادة ماتؤسس أو تنشئ أشكالا أيديولوجية تشرع سيطرتها ، فالطبقة التى تملك وسائل الانتاج المادى فى حوزتها ، لها السيطرة فى ذات الوقت على وسائل الانتاج العقلى ، ومن ثم فأفكار الذين يفتقدون وسائل الانتاج عادة ماتخضع لتلك التى تمتلك هذه الوسائل (١٧٧) .

ويكشف تحليل طبيعة الادراك الماركسى للأيديولوجيا عن ضرورة التمييز بين معنيين ، أولهما ان الظروف الاجتماعية التى يقع فى اطارها نشاط الأفراد تحدد طبيعة ادراكهم للعامل الذى يعيشون فى نطاقه . فى اطار هذا المعنى تشكل اللغة الوعى العملى للبشر الذى يرتبط عادة بظروف نشاطهم الاجتماعى . أما المعنى الثانى فيتعلق بانتشار الأفكار ، ويذهب ماركس الى اننا فى اطار المجتمعات الطبقية نجد ان الأفكار الحاكمة لأى حقبة هى أفكار الطبقة الحاكمة ، وذلك يعنى ان انتشار الأفكار يعتمد الى حد كبير على توزيع القوة الاقتصادية فى المجمع . وبهذا المعنى الأخير تشكل الأيديولوجيا جزءا من البناء الفوقى ، فالروح ethos السائدة فى أى عصر هى تلك التى تمنح الشرعية لمصالح الطبقة الحاكمة . وعلى ذلك تشكل علاقات الانتاج من خلال النسق الطبقى الأساس الحقيقى الذى يستند عليه البناء الفوقى

السياسى والقانونى ، الذى تنتمى اليه أشكالا محددة من الوعى الاجتماعى [١٧٨] ويعنى ذلك ان الأفكار التى تولدت يتم نشرها والموافقة عليها بوسطة جهاز السيطرة الطبقية . ومن ثم نجد ان الأيديولوجيا الحاكمة عادة ماتضم وضوحا ووعيا بالسيطرة ، بالاضافة الى امتلاكها الوسائل الأخلاقية لتحقيق هذه السيطرة [١٧٩] . بذلك تعتبر الأيديولوجيا أحد العناصر الرئيسية فى بناء القوة ، تستخدمها طبقة لتحقيق مصالحها وبها تقهر طبقة أخرى وتفرض عليها الخضوع ، والأيديولوجيا هى أولا وأخيرا انعكاس لتباينات الموقف الرأسمالى واغترابات .

ويعتبر القانون أو البناء التشريعى العنصر الثانى فى بناء القوة . فالتوسع فى الثروة الخاصة هو الذى أدى الى انهيار المجتمع المشاعى ، والذى شكل الأساس لنشأة القانون المدنى ، حيث قنن هذا القانون الأول فى روما ، اذ تبنت مراكز الرأسمالية المبكرة بايطاليا القانون الرومانى ، وحدث ذلك فى أماكن أخرى كثيرة ، وأصبح ذلك مصدرا للقانون المدنى . ويعتبر النسق الشرعى الحديث احدى الدعامات الأساسية للدولة البرجوازية . فى اطار ذلك تبرز حقيقة انه فى المجتمعات الطبقية نجد ان الطبقة المسيطرة تطور أو تؤسس أشكالا أيديولوجية تمنح سيطرتها مشروعية [١٨٠] . وبذلك يصبح القانون هو مجموعة القواعد التى تقولى الطبقة الحاكمة بواسطتها السيطرة على الموقف الاجتماعى وتوجيه تفاعلات لصالحها .

وتشكل الدولة العنصر الثالث فى بناء القوة من وجهة نظر الماركسية . ويحاول ماركس منذ البداية المفارقة بين السلطة والقوة ، فيرى ان الأولى علاقة اجتماعية متبادلة بين اثنين أو أكثر من البشر ، تنتشر خلال نسق الطبقة الاجتماعية ، ومن ثم فالسلطة ليست مركزة فى أى من نطاقاتها . أما القوة فيرى أنها ليست فقط متمركزة فى يد جماعة أو طبقة معينة فى أوقات محددة ، ولكنها تتضمن دفع البشرللعمل وفق أساليب لايوافقون ارادياً عليها ، ومن ثم تتمضن القوة دفع البشر للتصرف ضد مصالحهم [١٨١] . وتعتبر الدولة هى الاطار الشكلى لفاعلية السلطة والقوة . ويؤكد ماركس ان الدولة الحديثة ظهرت فى اطار ظروف تتحمل بصراع البرجوازية ضد بقايا الاقطاع ، بحيث تدعم هذا الظهور بواسطة متطلبات الاقتصاد الرأسمالى . وبذلك تنتمى الدولة الحديثة لظاهرة الثروة الخاصة الحديثة أيضا ، حيث أصبحت جهازا له أهميته التدريجية من قبل ملاك الثروة والضرائب التى يتم جمعها [١٨٢] . ويذهب ماركس الى القول بأن الدولة فى مراحل الرأسمالية المتقدمة ، كما كانت فى المراحل السابقة ، عادة ماتكون نتاجا للصراع الطبقى وليست سببا له . وتشير سلطتها الى مدى افتقاد الوعى

وتغلغل الاغتراب فى حوانب المجتمع ، حيث يصنع البشر تاريخهم بأساليب لاشعورية وغير رشيدة . أما الطبقة الوحيدة التى – بالنظر الى موقفها المستغل – يمكنها أن تصبح على وعى بوظيفة الدولة وسيطرة الطبقة الحاكمة عليها ، فهى البروليتاريا الكائنة فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة (١٨٣) .

وبالنسبة لعلاقة الدولة بالبعد الطبقى ، نجد ان الطبقة تميل الى التصرف لذاتها فى المرحلة السياسية ، حيث ممارسة القوة والصراع الصريح . اذ تنجذب الطبقة الواعية والراغبة فى تأكيد وتوسيع قدرتها الى مركز القوة ، وهى تفعل ذلك لكى تمنع بالقوة فعل الطبقات الأخرى المنافسة . وفى أمثلة نادرة لبعض الديموقراطيات قد تصعد البروليتاريا الى السلطة بالنظر الى تفوق قوتها العددية ، غير انها قد لا تجد مفرا من اجبار الطبقة البرجوازية الحاكمة على التسليم فى أعقاب صراع ثورى وراء المتاريس فى الشوارع . وقبل ان تصل البروليتاريا الى مستوى الوعى الضرورى للمشاركة فى الفعل الثورى ، فانها سوف تخضع لقهر تفرضه الطبقة الحاكمة بواسطة السلطة وليس القوة ، اذ سوف تحاول النظم البرجوازية كالعائلة والتعليم والديانة تأكيد مشروعية الحالة الراهنة بأساليب عديدة ، وسوف يشير نجاح البرجوازية فى هذا الصدد الى عمق الوعى الزائف الذى تخلقه لدى البروليتاريا . حيث يتضمن الوعى الزائف الموافقة على السلطة وعلى صحة المعايير والقيم والأفكار التى تظهر ويتم استيعابها من قبل الطبقة المضادة ، ومن ثم يتضمن ذلك الموافقة الارادية على ملاءمتها للحكم والسيطرة . هذه الملاءمة التى يتبدى زيفها من خلال الصراع الطبقى المتنامى . فى تلك اللحظة قد تنشأ القيم الحقيقية للبروليتاريا ، تلك التى يمكن الاتفاق عليها ، ويمكن ان تتضمن الوسائل الرشيدة لأعمال هذه القيم الثورية الموافقة على السلطة الداخلية الجديدة واستخدام القوة ضد السلطة القديمة . وحينئذ فان قوة الطبقة لذاتها تعتمد على درجة تماسكها استقلال سلطتها الداخلية (١٨٤) . ويؤكد كارل ماركس انه اذا كانت الدولة تعبيرا عن المجتمع الطبقى ، باعتبارها وسيلة الطبقة البرجوازية فى الحكم والسيطرة ، فان القضاء على الدولة لن يكون الا بالقضاء على البناء الطبقى والطبقة البرجوازية التى تؤدى الدولة وظيفة أساسية بالنسبة لها (١٨٥) .

ثالثا : الاغتراب ، أصوله ، أنماطه

يلعب مفهوم الاغتراب دورا محوريا فى النظرية الماركسية . وهو يشير الى علاقة تناقضية تعبر عن فاعلية الجدل الذى يشكل جوهر المشروع الماركسى . وفى شكله العام نجد ان البروليتاريا فى علاقتها بالبرجوازية تؤسسان الموقف الرأسمالى لاشباع حاجات مشتركة ، ومن ثم فهما بفعلهما على هذا النحو تؤسسان هذا الموقف كامتداد لهما ، ر ان هذا الموقف بعد تأسيسه يمتلك آلياته الخاصة التى تعمل على فرض علاقة عكسية على المشاركين فى الموقف ، حيث يقومان على اشباع متطلباته بينما هو يعمل باستمرار على اختزالهما وفرض خضوعهما له ، وهو مايعنى شيوع حالة من الاغتراب فى نطاق الموقف الرأسمالى بكل مكوناته

ودون الدخول فى شروح قاموسية لمفهوم الاغتراب ، فان هذا المصطلح يمكن ادراكه من خلال مصدره الانجليزى الذى يعنى to Alienate حيث يشير بالأساس الى ان شخصين أصبحا غريبين estranged كل عن الآخر (١٨٦) . هذا فى حين ان هناك تعريفا آخر يرى ان الاغتراب يشير الى عملية معقدة ذات جوانب متعددة ، تشير فى مجملها الى تحول انتاج النشاط الانسانى والاجتماعى بل وتحول نتاج قدرات الانسان وطبيعته الى شئ مستقل عنه تنتفى سيطرته عليه (١٨٧) ، ويعتبر هذا التعريف أكثر التعريفات اقترابا من الاستخدام الماركسى له .

وفى كتاباته عن الاغتراب تأثر ماركس بأفكار كل من هيجل وفويرباخ ، اذ حاول توسيع أفكار الأخير فيما يتعلق بالاغتراب لكى تشمل النطاق الاجتماعى (١٨٨) . ولتوضيح ذلك نجد ان الاغتراب كما ورد عند هيجل له جذوره – ككل الفرضيات الأخرى – فى النطاق العقلى أساسا . ولقد ظل المفهوم هيجليا فى أساسه برغم التعديلات التى أدخلها اليسار الهيجلى عليه . اذ يتبدى الاغتراب بالنسبة لهم كفكرة فلسفية أساسا أو كحالة تتبدى فى اطارها طاقات الانسان باعتبارها قوى مستقلة أو ذوات تتحكم فى أفعاله . وقد استخدم فويرباخ الاغتراب فى تفسيره للظواهر الدينية ، ومن ثم فقد نظر الى البناءات أو التشكيلات الفوقية كنوع من الاختراع الانسانى البحت . وبالنظر الى ذلك نجد ان ماركس يذهب كثيرا الى ماهو أبعد من فويرباخ ، اذ رفض تناول ظاهرة الاغتراب كظاهرة سيكلوجية فلسفية ، ومن ثم فقد أكد على ضرورة تحليلها كظاهرة اجتماعية أساسا فى اطار علاقات اجتماعية محددة وفى نطاق نسق اجتماعى / تاريخى بعينه (١٨٩) .

ولاشك أن ظاهرة الاغتراب من الظواهر التى شغلت الجناح الليبرالى للنظرية السوسيولوجية أيضا ، حيث كان لمفكرى هذا الجناح من أمثال فيبر ، دوركيم ، تونيس وكارل مانهايم وجهة نظر فى هذه الظاهرة . فقد ركز فيبر فى تحليله على التوتر بين الامكانية الكارزمية للفرد وبين الحاجة الى التكيف القسرى داخل مجال الدور المحدود ، حيث يحدث ذلك فى حالة افتقاد أى بناء معيارى شامل . أما دوركيم الذى طرح حالة الانومى ، كحالة مرضية عضال قد تصيب المجتمع ، والذى حدد حلا لها بضرورة تغيير دوافع الانسان فى مواجهة تأسيس بناء معيارى يعمل على الصياغة الروتينية والاعتيادية لحاجات الانسان (١٩٠) .

وبقدر اختلاف ماركس مع التنظير الفلسفى فيما يتلعق بالاغتراب كمفهوم أو كظاهرة ، فانه برغم اتفاقه مع المنظرين السوسيولوجيين – دوركيم وفيبر – فيما يتعلق بالطبيعة الاجتماعية للاغتراب ، فاننا نجده يتخلف عنهم بالنظر الى رفضه اعتبار أن المصدر الأساسى للاغتراب يتمثل فى حالة الفوضى والانهيار التى تصيب بشكل ما البناء المعيارى للمجتمع ، بحيث يصبح السلوك الانسانى فى أطار الواقع الاجتماعى خلوا من أى توجيه معيارى . وفى اطار ذلك نجد ان ماركس يؤكد ان هذه الظاهرة تقع فى أطار العلاقة بين الانسان والسياق الاجتماعى الاقتصادى الذى يتضمنه ويشكل مجال حركته الرئيسية . ذلك لان البناء المعيارى من وجهة نظره ليس الا تعبيراً أو انعكاسا مباشرا لحالة الاغتراب الانسانى وليس سببا له كما تدعى النظرية الليبرالية .

ويكشف التحليل الدقيق لظاهرة الاغتراب عن تضمنها لعمليتين أساسيتين فرعيتين . الأولى عملية الاستخراج externalization وفى اطارها ندرك حقيقة ان الانسان كذات سيكولوجية – فسيولوجية تعبر عن ذاتها من خلال الموضوعات الثقافية والتأسيسات الفكرية . ومن الواضح أن ذلك يعنى تخريج السلوك الانسانى فى شكل أيديولوجيات ونظم اجتماعية أو منتجات مادية . فى نطاق ذلك نجد ان الانسان يعكس ذاته على الواقع المحيط ، فيؤسس مايسر اشباع حاجاته الطبيعية والاجتماعية . وحتى هذه اللحظة فان عملية الاستخراج ليست اغترابا بمعناه الأساسى . أما العملية الفرعية الثانية فهى الغربة estrangement ، حيث يصبح الانسان فى اطارها وسيلة للانتاج الثقافى بدلا من كونه غايه له . وليس من الضرورى ان تكون ظاهرة الاستخراج مصحوبة دائما بظاهرة الغربة ، والا أصبح المشروع الماركسى لامعنى له (١٩١) ، حيث حاول ماركس ان يرجع كل أشكال الفردية الى الظاهرة الأساسية للاستغلال الاقتصادى . ويذهب دانيل بيل Daniel Bell الى القول بأن تضييق ماركس لقضية

الاغتراب العامة وقصرها على الاغتراب الاقتصادى ، قد أغلق بذلك الباب أمام التحليل العام والمثمر لقضايا التنظيم الاجتماعى وبناء الشخصية (١٩٢) .

وفى تناول ماركس لقضية الاغتراب نجده يبدأ من بداية افتراضية انتقلت اليه عبر نظريات التنوير أساسا . حيث يدور هذا التناول فى فلك مسلمتين أساسيتين ، الأولى تتعلق بالانسان والثانية بطبيعة التنظيم الاجتماعى . حيث تطرح المسلمة الأولى تصورا للانسان فى مرحلة افتراضية ، لم يتعرض فى اطارها لمجموعة الاغترابات التى فرضت عليه من قبل المجتمع البرجوازى . ويؤكد ماركس ان الانسان الطبيعى natural Man كان انسان كاملا ، وهو الكائن البشرى الفرد ، بحاجاته وامكاناته على النمو والتطور . ورغم ان ماركس قد عبر صراحة عن ذلك فى كتاباته الاولى ، فان ذلك ظل أساس تحليله طيلة حياته الفكرية اباقية من حيث نقده للنظام الرأسمالى أو فيما يتعلق بآماله فى تأسيس المجمع البشرى الحقيقى .

وككل الفلاسفة اعتقد ماركس فى قابلية الانسان للاكتمال بلا نهاية ، وفى قوى الانسان الكامنة والممكنة وغير المحدودة فى قدرتها على النمو . فاذا كان الانسان حاليا ليس إلا حيوانا عاملا فانه لايحتاج أن يظل على هذه الحال ، مادام بامكانه ان يحقق أعلى أشكال الخلق والابداع فى الفكر والعمل ، ويعتبر هذا التصور أساس تقدير كارل ماركس للأنساق الاجتماعية وتقويمه لها . حيث يؤكد ان قدرات الانسان الكامنة والمبدعة قد اضمحلت وقهرت تحت تأثير الشروط الاجتماعية السائدة فى كل المجتمعات الطبقية . ففى نطاق الرأسمالية مثلا ، وهى النسق الاجتماعى موضع التحليل ، لايحرم أيضا الانسان فقط من تجسيد أو تحقيق امكاناته كانسان ، ولكنه قد يحرم أيضا من حاجاته الحيوانية ، كالحاجة الى الهواء المنعش ، والطعام ، والجنس ، الخ .. ومن ثم فقد أصبح الجوع لايشعر به الانسان كنتيجة للظروف الطبيعية الخارجية ، بل يدركه كحالة من الحرمان التى يفرضها البشر الآخرون . ومن ثم فقد أدان ماركس النسق الرأسمالى لوطأته على البشر ، اذ يؤكد ماركس فى نطاق هذه المسلمة ان الانسان الذى تصوره كاملا أو يمتلك امكانات الكمال فى بداية التاريخ البشرى ، وحتى ماقبل النظام الرأسمالى اذا به يتحول الآن تحت وطأة هذا النظام الى مجرد حيوان عامل ، يرد الى حاجاته البدنية المحدودة (١٩٣) . ومن ثم فاذا كان لديه تصورا لما كان الانسان أو ما ينبغى ان يكونه ، فانه قد أدرك ان مايراه حوله فى المجتمع الصناعى يبتعد كثيرا عن المثال الذى يتصوره . فبدلا من أن يعمل النظام على تطوير القدرات الأساسية للانسان نجده يعمل على تنميطه وتشويهه ، حتى أصبح فى مرتبة أدنى من الحيوان ، وذلك يعنى ان الانسان وان كان

فى الأصل كاملا فانه قد اختزل واغترب فى ظل النظام الرأسمالى .

وتتعلق المسلمة الثانية بطبيعة النظام الاجتماعى فى حالة اكتماله قبل ان يغترب ، وينطلق ذلك من افتراض ماركس ان المراحل الأولى للحياة البشرية تميزت بأنها كانت ذات طبيعة تعاونية أساسا ، حيث تفاعل الانسان مع رفاقه الآخرين فى اطار علاقات غير مقيدة . وخلال هذه المرحلة كان الانسان يعبر عن طبيعته الجوهرية ، حيث لم يتضمن هذا التعبير أى تسلط أو سيطرة (١٩٤) . ولقد كان الانسان فى اطار هذه المرحلة مبدعا وخلاقا ومتعاونا ، يعمل قدراته الطبيعية فى مجتمع لايعوق مثل هذه القدرات . ومن الواضح ان هذه المرحلة سادت المرحلة المشاعية وهى ذاتها التى يأمل ماركس ان تسود مرحلة المجتمع الشيوعى ، غير أنه بين هاتين المرحلتين خضع المجتمع البشرى لعدة اغترابات كثيرة .

واذا كان التعاون هو الأصل فيا يتعلق بطبيعة التفاعل الاجتماعى ، فان قيام الصراع كأساس للتفاعل يصبح الحالة المغتربة عن هذا الأصل . ويكشف الاستقراء التاريخى عن تحقق هذه الحالة مع ظهور أول تقسيم اجتماعى للعمل فى اطار المجتمع المشاعى ، حدث ذلك حينما قامت احدى القبائل بأسر بعض أعضاء قبيلة أخرى ، واستخدمتهم كعبيد . ومنذ ذلك الحين تأسست أول الخواص البنائية التى فصلت البشر فيما بعد عن ذواتهم التلقائية والحقيقية . بعبارة أخرى انقسم الانسان الحقيقى على ذاته وضد ذاته من خلال مجموعة من المصالح المتعارضة بحيث كان ذلك مدخلا لتأسيس علاقات الصراع (١٩٥) . وبدأ من نقطة البدء الافتراضية هذه أصبح الصراع ظاهرة اجتماعية دائمة تتغير وفقا لطبيعة النسق المجتمعى . وهو مايشير اليه ماركس حينما يذهب الى القول بأن كل تاريخ الانسانية (مثل انهيار المجتمع البدائى القبلى ، والملكية المشاعية للأرض) ، ليس إلا تاريخ النضال بين الطبقات ، بين الطبقات المستثمرة والمستثمرة ، بين الطبقات الحاكمة والمحكومة (١٩٦) . ذلك يعنى ان التباين الاجتماعى تأسس كعامل هام من عوامل نشأة الاغتراب كظاهرة انسانية .

ويتمثل العامل الثانى الذى أسهم فى تغريب المجتمع الانسانى عن طبيعته الأساسية المتكاملة فى نشأة تقسيم العمل الاجتماعى . فى اطار ذلك فانه كان من المتوقع دائما تحديد مراحل وأنماط عديدة للاغتراب فى أعقاب كل ثورة اجتماعية ، حيث قامت انماط متعددة لتقسيم العمل ، واشكال الاستغلال الكثيرة التى قهرت وحرفت الطبيعة الأساسية للانسان ، بل وأعاقتها عن التعبير عن نفسها فى اطار الشكل الاجتماعى الملائم . اذ لم يعد الانسان قادرا

على التعبير عن ذاته بالأسلوب الجوهرى ، وانما أصبح يقف ضد البشر الآخرين فى المجتمع المنقسم الطبقات . وهى الحالة التى سوف تنتفى فى المرحلة النهائية حيث المجتمع الشيوعى ، كما كانت منتفية فى المجتمع البدائى . وهى الحالة التى كان يمتلك كل البشر فى المجتع ذات العلاقات بوسائل الانتاج والاعاشة ، ونفس الأهداف والمصالح غير المتصارعة (١٩٧) . بذلك فان تاريخ المراحل الأولى للرأسمالية يعتبر الى حد كبير بالنسبة لماركس تاريخ الاغتراب المتزايد للمنتج الصغير وعجزه عن السيطرة على انتاجه . وبعبارة أخرى تاريخ حرمانه من السيطرة عليه ، وحرمانه أيضا من وسائله فى الانتاج ومن ثم اعتماده على بيع عمله فى السوق (١٩٨) .

ماهو مضمون الاغتراب ؟ البحث فى طبيعة الاغتراب يكشف عن وجود صور عديدة له ولعوامله منها ماهو على مستوى الانسان فى النسق الاجتماعى بينما البعض الآخر على مستوى التنظيم الصناعى الانتاجى . أو على مستوى النسق الاجتماعى الشامل . وفيما يتعلق بالاغتراب على المستوى الانسانى نجد أنه قد وقعت مجموعة من الاغترابات استهدفت الانسان فى ذاته فجعلته فى واقعه الرأسمالى انسان مغتربا عن نموذجه الزصلى . أما أول صور الاغتراب على هذا المستوى فتتمثل فى تحول علاقة الانسان بالعالم من علاقة ذات طابع انسانى الى علاقة ذات طابع حيوانى . يتضح ذلك من ان البشر فى الأصل يعيشون فى اطار علاقة ايجابية متفاعلة مع العالم الطبيعى . بحيث يمكن اعتبار الثقافة والتكنولوجيا نتاجا لهذه العلاقة التفاعلية وتعبيرا عنها ، وهى أيضا الخواص الأساسية المميزة للانسان عن الحيوان . بالطبع هناك بعض الحيوانات المنتجة ، غير ان انتاجها يتم بأسلوب ميكانيكى تكيفى . فى اطار ذلك فان العمل المغترب يرجع النشاط الانسانى المنتج الى مستوى التكيف والطبيعة ، وليس السيادة عليها ، وهو مايفصل الكائن البشرى عن تكوينه الوعى ، ويفصله أيضا عما يجعل الحياة الانسانية متميزة عن الحياة الحيوانية . ولقد تأثرت مناقشة ماركس فى هذا الصدد الى حد كبير بفويرباخ وان اختلف المضمون الماركسى . اذ نجده قد استخدم المصطلحات الفويرباخية فى التأكيد على ان الانسان (كمنتج شامل universal producer) على نقيض الحيوان ، الذى ينتج جزئيا فقط وفى اطار سياقات محددة تتأسس بواسطة المكونات الغريزية لنموذجه البيلوجى ، ويعتبر تحليل ماركس فى هذا الصدد أكثر واقعية وتحددا عما توحى به المصطلحات الفويرباخية (١٩٩) . أما الصورة الثانية للاغتراب فتتحتل فى ان العامل يفتقد السيطرة على انتاجه ، مادام ماينتجه يستولى عليه الآخرون ، ومن ثم فهو لايستفيد منه ، وفى اطار الانتاج الرأسمالى يعتبر انتاج البضائع من أجل التبادل من أهم

مبادئ اقتصاد السوق . حيث يتم انتاج البضائع وتوزيعها بواسطة عمليات السوق الحرة ، بل ان العامل ذاته يعامل كسلعة ، ومن ثم يباع ويشترى فى السوق . فى اطار ذلك فهو لايمتلك القوة لتحديد مصير ماينتجه ، ومن ثم تعمل آليات السوق بالشكل الذى تدعم فيه مصالح الرأسمالى على حساب مصالح العالم ، وعلى ذلك فكلما أنتج العامل أكثر ، كلما قل مايستهلكه ، وكلما خلق قيما أكثر ، كلما أصبح هو رخيصا [٢٠٠] .

ويوجز ماركس هذه العملية من خلال تأكيده ان الموضوع الذى ينتجه العامل ، أى انتاجه ، يصبح غريبا ، أو هو قوة مستقلة عن منتجها . وتحقق العمل هو تموضع هذه القوة ، وفى ظل الأوضاع الاقتصادية الرأسمالية ، يظهر التموضوع على هيئة فقدان الموضوع واستبعاده لصاحبه ، كما يظهر التملك والاستحواذ على أنه اغتراب ونزع ملكية . فخضوع العامل لقوانين الانتاج الرأسمالى للسلع يؤدى حتما الى افقاره . ذلك لأنه (كلما ازداد العامل كدحا ، ازدادت قوة الموضوع الغريب الذى ينتجه على الوقوف فى وجهه ، وازداد هو نفسه فقرا) [٢٠١] . ويسلم تموضع انتاج العامل واستعباده له الى الصورة الثالثة للاغتراب على مستوى الانسان . حيث يغترب العامل فى اطار وظيفة العمل ذاتها . فاذا كان ناتج العمل هو الاغتراب فان الانتاج نفسه ينبغى أن يكون اغترابا نشطا أو نشاطا للاغتراب [٢٠٢] . حيث لاتقدم وظيفة العمل أية اشباعات جوهرية تجعل من الممكن للعامل ان يطور أو ينمى قدراته العقلية والديريقية بحرية مادام العمل مفروضا بواسطة الظروف الخارجية القاهرة وحدها ، حيث يصبح العمل نتيجة لغاية ما وليس غاية فى ذاته . ذلك يتضح من حقيقة أنه فى حالة غياب قسر فيزيقى أو قسر من أى نوع آخر ، فان البشر يفرون من العمل مثلما يفرون من الطاعون [٢٠٣] . فالعمل فى شكله الصحيح يعتبر وسيطا يستخدمه الانسان فى تحقيق ذاته على النحو الصحيح ، وفى سبيل تنمية امكاناته كاملة . ومن الواجب ان يكون الهدف من الاستخدام الواعى لقوى الطبيعة هو ارضاؤه وامتاعه ، أما فى صورته الراهنة فانه يشل كل الملكات الانسانية ويحول دون أشباعها . فالعامل لايؤكد ماهيته بل يناقضها ، وبدلا من ان ينمى طاقاته الجسمية والذهنية الحرة ، يكبت جسمه ويدمر ذهنه . من هنا فانه لاشعر أنه مع ذاته وهو يعمل ، ويشعر بذاته حينما يتحرر منه . انه يشعر بكيانه حين لايعمل ، ولايشعر به حين يعمل . ومن هنا فانه لايقوم بعمله طوعا ، بل كرها ، انه عمل بالسخرة ، ومن ثم فانه ليس اشباعا لحاجة ، بل هو مجرد وسيلة لاشباع رغبات خارجة عنه [٢٠٤] .

والاغتراب على هذا المستوى الأنسانى مثلما يصدق على العامل (المنتج المنتزعة

ملكيته) يصدق على من يشترى عمله . ومن ثم فعملية الاغتراب تؤثر على كل مستويات المجتمع بل انها تشوه الوظائف الطبيعية للانسان ، فالحواس التى هى المصادر الأولية للحرية فى رأى فويرباخ ترد الى حاسة تملك واحدة . بل أن اللذة والمتعة ذاتهما يتحولان من شروط يسمى البشر فى ظلها (طبيعتهم الكلية) بحرية الى أحوال للتملك والاقتناء الأنانى (٢٠٥) . ويعنى ذلك على مايذهب ماركس ان الاغتراب يتضمن البرجوازية الى جانب الطبقة البروليتارية . فالى جانب ان الاتجاه البرجوازى لاستغلال العامل البروليتارى لايعكس العواطف أو الغرائز البشرية الطبيعية ، وانما يعكس الطبيعة الصراعية الدخيلة على الوجود الانسانى . فاننا نجد ان البرجوازى يعانى من اغتراب آخر ، فوفقا لمقولات الاقتصاد السياسى فان على الرأسمالى أن يتخلى بالادخار والتقشف كفضائل أسسية له ، ومن ثم يصبح علم الصناعة هو علم التقشف ، الذى يعنى انكار الذات وانكار الحياة ، وانكار كل الحاجات البشرية كأساس مذهب لابد أن يعتقد . فكلما قلل البرجوازى من الطعام والشراب وقراءة الكتب وكلما قلل من الذهاب الى المسرح والسينما ، وصالة الرقص أو قاعة الاجتماعات العامة ، أو قلل من التفكير والحب والتنظير والغناء والرسم .. الخ . كلما ادخر البرجوازى رأسماله ، وامتلأت خزائنه ، وكلما تضاءل امتلك أكثر وتزايد مخزون اغترابه (٢٠٦) .

أما المستوى الثانى للاغتراب فيقع على مستوى التنظيم الانتاجى ، حيث يتميز الشكل الانتاجى الذى يتخذه المصنع بكونه شكلا مغتربا ، فبدلا من توزع العمال على خريطة المجتمع يتم تجميعهم لكى يعملوا فى معية واحدة تحت أمرة رأسمالى واحد . ويصبح التأكيد على قوة الانتاج الاجتماعى مدخلا الى جلب كثير من البشر لكى يعمل كل منهم الى جانب الآخر ومن ثم يتعاون معه (٢٠٧) . والى جانب أن تجميع العمال على هذا النحو يولد فائض قيمة لكثر (حيث يقل فائض قيمة استخدام ١٢ عاملا منفصلين كل منهم يعمل ١٢ ساعة عن استخدام ١٢ عاملا يتعاونون مع بعضهم البعض فى العمل ١٢ ساعة) ، فان هذا النظام يؤدى الى تغيرات أيكلوجية واجتماعية فى موقف العمل . ومن ثم يصبح انشاء المصنع نقطة بدء اغتراب التنظيم الاجتماعى للعمل عما كان عليه ، أو صورة أولى للاغتراب على هذا المستوى . أما الصورة الثانية للاغتراب على مستوى التنظيم فتتمثل فى نظام التخصص الذى يفرضه نظام العمل فى المصنع الرأسمالى من خلال تقسيم العمل كميكانيزم انتاجى يحول البشر الى اجزاء له (٢٠٨) ، حيث تعين لكل عامل وظيفة جزئية . يقتصر على أدائها ، ومن ثم تتحول قوة العمل لديه ، بقية حياته الى عضو لأداء هذه الوظيفة الجزئية (٢٠٩) . ونتاجا لذلك يتجه تقسيم العمل فى المصنع

الى تأسيس مايسمى بالعامل الجماعى Collective Labour الذى يتشكل من جمع مترابط من العمال الجزئيين Detailed Labour. بالنظر الى ذلك يمتلك العامل الجماعى درجة متساوية من الكفاءة والامتياز لكل المتطلبات التى يحتاجها الانتاج ، وهو يستهلكها أيضا بأكثر الاساليب كفاءة واقتصادية . وذلك عن طريق الاستخدام الكامل لكل أعضائه الذين يتكونون من العمال التفصيليين ، أو جماعات العمل فى أدائهم لوظائفهم الخاصة المنوطة بهم . ومن ثم تصبح نقائص واختزالات أو مسخ العامل التفصيلى اكتمالات بالنسبة للعامل الجماعى حينما يصبح الأول جزءا من الأخير . وتتحول عملية انجاز شئ واحد الى وسيلة لاتفشل ابدا ، بينما يفرض ارتباط العامل بالميكانيزم الكلى لأداء العمل ان يعمل بنفس أطراد أجزاء الآلة (٢١٠) . والى جانب أن ذلك يؤدى الى اختزال قدرات العامل الحقيقى الى أحدى قدراته فقط لصياغة العامل الجماعى التصورى الذى يضم كل هذه القدرات الجزئية ، وذلك عن طريق اجبار العامل على الاقتصار على مهارة جزئية لحساب القضاء على عالم كامل من الامكانات والغرائز الانتاجية بداخله (٢١١) ، فان ذلك يفرض اتجاه الذكاء الانسانى نحو تطوير أحدى القدرات فقط . ولتخليق هذا العامل الجماعى بقدرات عالية فان ذلك لابد أن يتم على أساس افقار القدرات الاخرى للعامل الفردى ، ومنها امكانية التفكير (فالمصنع يزدهر كلما قلت استشارة العقل) وحيثما اعتبر محل العمل آلة يلعب البشر أدوارهم فى اطارها كأجزاء لها (٢١٢) . بذلك يتحول العامل الانسانى عن طريق إلغاء ملكه التفكير لديه الى قدرة واحدة تنزل به الى مستوى حيوانى له حاجاته التى تشبع فى ادنى مستوياتها (٢١٣) . وتتمثل الصورة الثالثة للاغتراب فى اطار تنظيم الانتاج والعمل فى ادوات الانتاج أيضا . اذ يقود تركيز الانتاج فى مصنع واحد الى ضرورة اجراء بعض التغيرات فى الأدوات المستخدمة . فعلى خلاف الحرفى الذى يستخدم مجموعة من الأدوات القليلة لانجاز عمليات كثيرة ، فان العامل الآن يستخدم أداة متخصصة لانجاز كل عملية فرعية صغيرة . فى اطار ذلك يؤكد ماركس تميز نظام المصنع بتباين أدوات العمل ، وهو التباين الذى يعنى ان أدوات معينة تتخذ شكلا ثابتا يتكيف وتنفيذ عملية معينة ، وتخصص هذه الأدوات يعنى ان كل أداة منفردة ذات امكانية كاملة فى يد العامل التفصيلى المحدود (٢١٤) . ولقد أدى ذلك الى نتيجتين : الأولى خضوع العامل لوسيلة واحدة بالرغم من التوتر الذى يفرضه عليه هذا الوضع . ومن ثم تصبح شرطا انتاجا يخضع له العامل بدلا من ممارسته الانتاج بواسطة وسائل عديدة له سيطرة كاملة عليها من حيث ابتكارها أو التعديل فيها . أما النتيجة الثانية فتتمثل فى ان ذلك يقود العامل الى الاغتراب عن قواه الخلاقة ومن ثم

مسخه ككائن بشرى ، بذلك يثرى التنظيم وينتعش عن طريق تغريب العامل عن امكاناته الفردية .

يبقى المستوى الأخير من الاغتراب ، وهو الاغتراب على مستوى النسق الاجتماعى ، حيث تتأسس مجموعة من الظواهر التى تقع عبر عدة مراحل تاريخية متتابعة تسم كلها فى نهاية الأمر الى تخليق نسق مغترب عن طبيعته الأساسية ، تولد تناقضاته احتمالات نفيه وانهياره . ويشكل الصراع الاجتماعى أول صور الاغتراب على هذا المستوى . اذ تشير دراسات عديدة على ان التعاون هو الخاصية الجوهرية فى التفاعل الانسانى . بحيث استمر ذلك حتى نقطة البداية الافتراضية للاغراب حينما اقدمت احدى القبائل على أسر أعضاء قبيلة أخرى وتحويلهم الى عبيد . ومن ثم ظهرت أول خاصية بنائية فصلت البشر عن طبيعتهم التلقائية ، وأصبح الانسان – فى تصوره الشامل – منقسما على نفسه ومضادا لها [٢١٥] . ذلك يفسر نظرة ماركس الى التاريخ الانسانى باعتباره تاريخا للنضال بين الطبقات المضطهدة والمضطهدة [٢١٦] . ويذهب الى القول بأنه اذا تمكن البناء من التخلص من أحد أشكال الاغتراب على هذا النحو فان ذلك عادة مايكون مقدمة لتولد اغتراب جديد . بحيث لاينتفى هذا الاغتراب إلا بنهاية الشكل الطبقى للمجتمع وتحقق المرحلة الشيوعية التى يستعيد فى اطارها النسق هويته الأولى والأساسية . ويشكل تقسيم العمل الاجتماعى كعملية بنائية الصورة الثانية للاغتراب على المستوى النسقى . وان كان هذا الشكل له بدايته الافتراضية التى أشرنا اليها حيث سيطرة احدى القبائل على أخرى ، فانه اتجه فى تناميه من خلال حركة ذات اتجاهات متضادة حيث اتجاهه الى اختزال الانسان وقسره على احدى ملكاته لصالح امتلاك التنظيم لقدرات متنوعة . ومن ثم فانه كلما كان هناك اغتراب على المستوى الانسانى فانه يوجد اكتمال على مستوى النسق الاجتماعى . بل اننا نجد ان نظام المصنع كوحدة انتاجية فى النسق البرجوازى يعانى من اغتراب عن نموذج الانتاج الطبيعى ، حيث انه يتضمن تعديلا ايكلوجيا فى البيئة الطبيعية [٢١٧] . بل انه حدث فى اطار هذا المستوى أيضا مايمكن ان يسمى بالاغتراب البيئى حيث تحول الواقع المتجانس الى واقع متناقض ، ومن ثم نشاهد فى اطار النسق البرجوازى نمو المدينة على حساب تخلف الريف ، وقد ينسحب ذلك على المستوى العالمى حيث نمو البلاد صناعية على حساب المجتمعات البدائية والزراعية [٢١٨] . بالاضافة الى ذلك تخلق مايمكن أن يسمى بالاغتراب النوعى حيث تبرز الفوارق بين الرجال والنساء . وتنشأ نوع

من الدونية الاجتماعية بالنسبة للنساء فى مقابل سمو يكون من حظ الرجال ، وتتخلق علاقة أشبه ماتكون بعلاقة السادة بالعبيد [٢١٩] ، ولكن على أساس نوعى . بالاضافة الى ذلك فان تقسيم العمل كتنظيم يفرض مايمكن ان يسمى باغتراب الانسان عن الآخر فى اطار العلاقات الاجتماعية . اذ يفرض تقسيم العمل ان يكون لكل انسان مجال خاص ومميز للنشاط يفرض عليه ولايستطيع ان يتهرب منه . حيث العمل منفصل عن موضوعه ، هو فى نهاية المطاف اغتراب للانسان عن الانسان . يعزل فيه الأفراد بعضهم عن بعض ، ويوضع بعضهم ضد بعض ، ويكمن أساس ارتباطاتهم فى السلع التى يتبادلونها – وليس فى أشخاصهم . فاغتراب الانسان عن ذاته هو فى ذات الوقت اغتراب عن أقرانه من البشر [٢٢٠] ، تبقى بعد ذلك الصورة الأخيرة للاغتراب على مستوى النسق الاجتماعى . حيث يخلق اغتراب النسق البرجوازى اغترابا من نوع آخر ، اذ تتخلق بعض الظواهر أو النظم الاجتماعية التى ليست لها أية جذور موضوعية ، ويطرح ماركس الدين مثالا على ذلك . فالانسان من وجهة نظره هو الذى يخلق الدين ، وليست القوى الدينية هى التى تخلق الانسان . فالدين فى الحقيقة ليس إلا وعى الانسان بذاته لأن الانسان ليس كائنا مجردا يسكن خارج العالم ، وانما الانسان هو العالم الانسانى وهو الدولة والمجتمع . ومن ثم يصبح الدين هو التحقق المثالى لكينونة الانسان مادامت هذه الكينونة البشرية لاتمتلك وجودا واقعيا . وبذلك تصبح المعانة الدينية ليست سوى تعبير عن المعاناة الواقعية أو احتجاج على هذه المعاناة . بذلك يصبح الدين هو رمز المخلوق المقهور ، أو هو عاطفة العالم الذى لاقلب له . أو روح الظروف التى لاروح لها ، أنه أفيون البشر [٢٢١] .

رابعا : البروليتاريا والانتقال من اللاوعى الى الوعى

من وجهة النظر الماركسية تعنى العقلانية ان يتجه البشر فى النسق الى ادراك مصالحهم الحقيقية كما تتبدى لهم فى المواقف التى يجدون أنفسهم فيها [٢٢٢] . ويكشف تحليل ملامح السلوك في اطار المشروع الماركسى عن ترادف بين عقلانية السلوك من ناحية والوعى به من ناحية أخرى . ومن ثم يصبح الوعى الزائف حالة لاعقلانية يقع الانسان فريسة لها ، أما بسبب قصور ادراكى منه ، أو بسبب عوامل خارجية مفروضة عليه . ذلك يعنى ان تحقق الوعى – اذا أدركنا ان ماركس اهتم أساسا بالجانب الطبقى للنسق على مايذهب بارسونز [٢٢٣] – تعنى اكتشاف الانسان لموقعه الطبقى ، ولمتضمنات دوره فى اطار هذا الموقع الطبقى ، أعنى وعيه بمصالحه وأهدافه وعقلانية وسائله لتجسيد تحقق هذا المصالح .

بالنظر الى ذلك نجد ان ماركس يذهب الى ان الوعى له جذوره فى الممارسة الانسانية ، التى هى اجتماعية بطبيعتها ، وذلك هو معنى العبارة (ان وعى البشر ليس هو الذى يحدد وجودهم ، وانما على العكس ، فان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم) [٢٢٤] . وهناك مايشير الى تشويه موقف ماركس فيما يتعلق بهذه الملاحظة غير ان المقصود هنا هو الكائن الاجتماعى ، وقد يكون هناك قدر من الاعتراض فيما يتعلق بتعميم ان الوعى محكوم بالنشاط الانسانى فى المجتمع . ويشير ماركس الى ان اللغة كحالة يمكن ان تعطينا مثالا واقعيا على ذلك . اذ يؤكد ماركس ان اللغة القديمة قدم الوعى ، واللغة هى الوعى العملى الذى يوجد أيضا من أجل الآخرين من البشر ، ولهذا السبب فهى توجد بالنسبة لى شخصيا [٢٢٥] . فالتعبير عن الأفكار ، ووجود أى شئ يتجاوز الحواس يعتمد على وجود اللغة ، بيد ان اللغة نتاج اجتماعى ، حيث يتكسب الفرد المقولات اللغوية التى تشكل مرتكزات وعيه بالنظر الى عضويته فى المجتمع . ويتحدد الوعى بشكل مباشر فى إطار المشروع الماركسى بالنظر الى مجموع علاقات الانتاج التى تشكل البناء الاقتصادى للمجتمع ، حيث الأساس الحقيقى الذى تنتمى له أشكال محددة من الوعى الاجتماعى . بذلك فان أسلوب الانتاج ووسائل الحياة المادية تحدد ، بشكل عام ، العمليات العقلية والسياسية والاجتماعية للحياة [٢٢٦] .

من ناحية أخرى يؤكد ماركس ان وعى الانسان يتحقق اذا تآزر دوره والقوانين العامة للتاريخ ، ومن ثم فهناك تباين فيما يتعلق بدرجة قدرة الأفراد على توحيد أغراضهم مع الحركة الدياليكتيكية العامة للتاريخ ، وذلك مايعنيه ماركس بالوعى الطبقى [٢٢٧] . بذلك يؤكد ماركس على عقلانية الأيديولوجية ، حيث تصر الماركسية على أن المجتمع يؤسسه الأفراد الواعون conscious agents الذين يعملون بارادة وعاطفة نحو أهداف محددة . ومن ثم فالتغير الاجتماعى ليس نتاجا للقوى اللاشخصية العمياء . وانما هو نتيجة لالتقاء الارادات والأفعال البشرية [٢٢٨] .

وفى معالجة ماركس لقضية الوعى فى مشروعه النظرى نجده يؤكد على تحدد الوعى أساسا بالنظر الى أسلوب الانتاج الاقتصادى والظروف البنائية الأشمل ، وان نضج الوعى يعنى مروره بمرحلة سابقة هى مرحلة اللاوعى ، فاذا تحقق الوعى الموضوعى فلا عودة للوعى الزائف . وان تحقق الوعى أو العقلانية تعنى بداية التاريخ الحقيقى للانسان . ويؤكد كارل

ماركس ان هناك ظروفا أساسية تساعد على تشكل الوعى الطبقى ، أو حتى درجة عالية من الوعى بالمصالح والأهداف . فقد توجد طبقة مع بعضها البعض ، ومع ذلك لاتسعى لتحقيق مصالح مشتركة . فرغم ان أعضاءها قد يعيشون فى ظل ظروف متشابهة إلا أنهم قد لا يدخلون فى علاقات متبادلة ومتنوعة كل مع الآخر (٢٢٩) . بالاضافة الى ذلك فان الوعى قد يتأخر اذا ظلت الوحدات التى تنتمى اليها هذه المصالح منعزلة كل عن الأخرى ، أو اذا لم يسودها تقسيم للعمل أو تخلفت عنها وسائل الاتصال التى تيسر وحدتها واكتسابها لوعيها (٢٣٠) . ويذهب ماركس الى أنه قد حدث هذا الموقف بالنسبة للبروليتاريا فى بداية تشكلها ، حيث كانت المصانع ماتزال منعزلة والاتصالات بين المدن منخفضة ، وحيث لم تكن لظروف الاستغلال وطأتها على الطبقة البروليتارية . ومن حيث لم تكن لظروف الاستغلال وطأتها على الطبقة البروليتارية . ومن ثم لا تسعى لتنظيم نفسها . هذا بالاضافة الى عدم تخلق وحدة شعورية تربط بين البشر فى الموقف الطبقى ، ورغم ذلك وجدت البروليتاريا فى اطار موقف يشبه موقف جماعات الفلاحين ، حيث أنها حتى هذه اللحظة تشكل طبقة فى ذاتها فقط . ولايعنى ذلك ان الأفراد فى هذه المواقف الطبقية ليست لهم مصالح أو أهداف يشعرون بها ، ومن ثم يتجزون عملهم بالنظر اليها . وانما عادة ماتكون لديهم مصالحهم وأهدافهم . بيد ان هذه المصالح تسوقهم الى العمل الفردى أو العائلى وليس الى العمل الطبقى المشترك . فهم لايتصرفون مع بعضهم البعض كطبقة ، ولايبذلون أية محاولة لكى يؤسسوا سيطرة على موقفهم الطبقى بأسلوب مشترك عن طريق العمل السياسى ، حيث يشكل الأفراد طبقة اذا هم دخلوا فى صراع مشترك مع طبقة أخرى فقط (٢٣١) . ذلك يعنى ان هناك وضعين توجد الطبقة فى اطارها بالنظر الى مستوى محدد من العقلانية أو الوعى ، حيث الطبقة فى ذاتها والطبقة لذاتها . وفى اطار هذين الشكلين نجد قيما وعلاقات طبقية بين البشر داخل الطبقة . ومن ثم فالطبقة على هذا النحو لاتتميز عن أية جماعة أخرى داخل المجتمع . ذلك ان الطبقة فى ذاتها تفتقد ادراك أى مصالح مشتركة واضحة تعبر عنها ، ومن ثم توحد بين البشر فى اطار هذه الطبقة وتدفعهم الى التصرف كوحدة كما لو كانت شخصا واحدا ، وتبدأ الطبقات فى التصرف لذاتها على هذا النحو حينما تتأسس مثل هذه الأهداف المشتركة .

ذلك يطرح تساؤلا يتعلق باستكشاف العوامل التى تساعد على تحرك الطبقة وسعيها وراء مصالح لذاتها ، وهى ذات العوامل التى تساعد على نضج الوعى الطبقى على المستوى الفردى واجماعى بما ييسر الادراك الطبقى لمصالح الطبقة وأهدافها والطريق لتحقيق هذه الأهداف . وبالنظر الى ذلك نعرض لمجموعة من العوامل الأساسية ذات الطابع الذاتى فى

بعضها والموضوعى فى البعض الآخر . هذا بالاضافة الى مجموعة من العوامل الوسيطة أو المساعدة التى يسرت تحقق النتائج المترتبة على فاعلية العوامل الأساسية .

ويتمثل أول هذه العوامل فى الظروف الموضوعية المتجسدة فى سيطرة الرأسماليين على الموقف الذى تعيشه البروليتاريا . فى اطار ذلك نجد ان البروليتاريا وان وقفت كطبقة فى علاقتها برأس المال ، إلا أنها حتى هذه الحظة لاتقف كطبقة لذاتها [٢٣٢] ، أعنى أنها لم تع عقلانيا متضمنات الموقف ، ويتمثل وعى البرجوازية فى اطار مجموعة العوامل الموضوعية هذه فى سعيها الى تراكم رأس المال واستثماره فى المشروعات ، ومن ثم استخدام العمال الأكثر ، وينتج عن الوعى الواقعى الخالص الهادف الى الحصول على أكبر قدر من الربح من منتوج السوق ، أو من خلال العملية الانتاجية داخل المشروع . بيد أنه أثناء سعى البرجوازية لتحقيق مصالحها فانها تعمل على بناء المصانع الأكبر ، ومن ثم استخدام العمال الأكثر ، بالاضافة الى أنها قد تعمل على اعطاء العمال أجورا أقل فأقل من أجل رفع مستوى أرباحهم [٢٣٣] . غير ان هذا التصرف العقلانى للفاعل البرجوازى وان كان عقلانيا على مستوى الطبقة البرجوازية إلا أنه ليس كذلك على مستوى البناء الطبقى ككل ، لأنه أثناء هذه العملية نجد البرجوازى بجمعه للعمال مع بعضهم البعض وتخفيض أجورهم ، بالاضافة الى الشروط القهرية الأخرى ، يوفر الشروط الموضوعية لتخلفهم كطبقة أولا . ومن ثم يوفر لهم الادراك الموضوعى للشروط أو الظروف القهرية التى يعملون فى ظلها ، ومن ثم يصبح وعى البرجوازية وعيا موضوعيا على مستوى الطبقة ولا وعيا على المستوى النظامى الشامل ، لأن البرجوازية بسلوكها الذى تتصوره واعيا يؤدى الى تخليق نفيها ، وهو مايشير الى فاعلية الحتمية الجدلية ، حيث انه اذا كانت البرجوازية قد ظهرت أولا كطبقة تعمل لذاتها ، فانها من خلال سعيها لمصلحتها قد ترتكب ممارسات غير رشيدة يكون من نتاجها اكساب البروليتاريا وعيها وسعيها لمصالحها التى تتحقق اذا هى قد توجهت نحو القضاء على البرجوازية ذاتها .

وتشكل مجموعة الظروف الذاتية العامل الثانى لتحقق الوعى الطبقى . اذ يؤكد ماركس ان العوامل الذاتية تلعب دورا فى تشكل الوعى الذاتى للبروليتاريا ، الذى يعنى ادراكها لعلاقاتها بوسائل الانتاج [٢٣٤] ، واكتشافها الضغوط القهرية التى تفرضها البرجوازية لذاتها فى اطار جهود ذات متتاليات عديدة لصالح الموقف البروليتارى ، وأيضا عن طريق تطويرها لقيم بروليتارية تشكل أساسا لوعيها الموضوعى وليس الوعى الزائف . ويستمر هذا لتصاعد فى امتلاك درجات من الوعى حتى ينتهى ذلك باستخدام الوسائل العقلانية لأعمال القيم

الثورية البروليتارية التى تتضمن تأسيس سلطة داخلية واستخدام القوة فى الصراع ضد سلطة البرجوازية السابقة . ويتميز اكتشاف البروليتاريا لمصالحها بمروره عبر ثلاث مراحل أساسية ، حيث تسعى البروليتاريا خلال المرحلة الأولى لتحقيق مصالحها كأفراد لا كأعضاء فى طبقة ، بحيث تدرك هذه المصالح ذاتيا على أنها أغراض وأهداف يريدها البشر الواقعيون ويعبرون عنها من خلال توجيه جهودهم لتحقيقها ، وعادة ماتسود هذه المرحلة خلال فترة وجود الطبقة فى ذاتها وليس لذاتها . أما المرحلة الثانية فيمكن ان نسميها مرحلة إدراك المصالح بالنظر فى التعبير عن مصالحهم كأفراد أو مصالح جماعات غير طبقية ، وحتى مصالح الجماعات المستغلة لهم ، على سبيل المثال – كما يذهب ماركس – الموقف الذى دعم فيه الفلاحون نابليون أو حينما تدعم البروليتاريا موقف الحزب السياسى البرجوازى . حتى هذا المستوى فانهم يعبرون عن مصالح تشير الى فشلهم فى ادراك موقفهم الحقيقى ، وأيضا فى التعرف على مصالحهم الحقيقية أى الجوهرية . فى اطار هذه المرحلة نجد ان السلوك البروليتارى يرتكز على مايمكن أن نسميه بالوعى أو الفهم الزائف لموقفهم الطبقى الحقيقى فى بناء المجتمع ، وهم حتى هذه اللحظة لايتصرفون كطبقة – بالمفهوم الشامل للطبقة – ولايكونون قد شكلوا بعد طبقة لذاتها . وفى المرحلة الثالثة تبدأ الطبقة فى ادراك حدود موقعها الطبقى ، وتعرف ان هناك أسلوبا وحيدا لتصرف فى اطار هذا الموقف ، وبشكل سريع أو متأخر سوف يندفع شاغلوا المواقف الطبقية بواسطة الظروف الاجتماعية المتنامية ، بالاضافة الى ظروف الصراع السياسى لطبقتهم نحو التعرف على المصالح الواضحة . ويؤكد ماركس انه اذا تمكنت الطبقة – كأعضاء – من الادراك فان الموقف الطبقى يصبح كامل التحديد بصورة موضوعية (٢٣٥) . ويذهب الى أنه اذا لم يتم اكتمال تنظيم البروليتاريا لذاتها فى شكل طبقة واذا لم يتخذ الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية الطابع السياسى ، فان المنظرين الذين ابتدعوا الأنساق النظرية لاشباع حاجات الطبقات المقهورة يصبحون مجرد يوتوبيين (٢٣٦) . ويؤكد ماركس ان الطبقة تصبح طبقة فقط حينما يدفعها صراعها مع الطبقة المضادة نحو النشاط السياسى . عند هذه المرحلة فقط يكون باستطاعتها تحديد مصالحها الحقيقية والدفاع عنها . ثم يؤكد انه بمجرد التحديد الواضح للبناء الموضوعى للعلاقات خلال عملية الصراع الطبقى ، وحينما ينمو الموقف الطبقى حتى يتخذ شكله المثالى ، حيث تستقطب الطبقات ، وحينما يستفحل بؤس البروليتاريا ، حينئذ فان معظمهم قد يدرك بشكل عقلانى وواعى – كادراك العالم – حقيقة مصالحهم الجوهرية . عند هذه المرحلة سوف تتصرف الطبقة لصالحها ، ومن ثم سوف تطور نظرية عن المجتمع والتغير (٢٣٧) .

أما المجموعة الثالثة من العوامل التى تساعد فى تحقيق ادراك الطبقة لموقفها بوعى موضوعى ، فهى يمكن ان نسميها بالعوامل الوسيطة ؛ حيث تؤدى دورها فى انضاج التفاعل الناتج عن العوامل الأساسية – ذاتية أو موضوعية – بحيث تحقق النتائج المترتبة على تفاعلها . ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى أول عوامل هذه المجموعة حيث يؤدى تأسسه الى خلق بعض الظروف القهرية المحيطة بالعامل البروليتارى ، منها اختزال ملكاته الى ملكة واحدة ، ومن ثم يفرض عليه ان يحيا وجودا جزئيا . هذا بالاضافة الى أن تقسيم العمل يفرض على الأنا (البروليتارى) مجرد كونه منتجا للسلع التى تشبع حاجات الآخر (البرجوازى) ويتج عن تقسيم العمل فى أقصى حالات نضجه بناء طبقيا يحتوى على طبقتين أساسيتين . الأولى البرجوازية التى يتأكد نموها ورفاهيتها على أساس عمق استغلالها للبروليتاريا وقهرها للحياة وفق أقسى ظروف ممكنة ، بحيث يكون ناتج تقسيم العمل هو جعل كل طبقة تدرك مكانتها الطبقية فى البناء الاجتماعى وعلاقتها بالطبقات الأخرى ، وأهدافها التى ينبغى عليها انجازها سواء تلك المفروضة عليها أو تلك التى تدرك ان انجازها يكون لصالح وجودها الحى كطبقة . ويعتبر عامل المواصلات وتيسير سبل الاتصال بين مختلف أعضاء الطبقة البروليتارية العامل الثانى فى اطار مجموعة العوامل الوسيطة هذه ، وقد قلنا فيما سبق ان البرجوازية فى سعيها من أجل الربح تقوم بتجميع العمال أكثر وأكثر فى مصانع أكبر فأكبر ، بحيث ييسر لهم هذا الوضع الاتصال مع بعضهم البعض ، ومن ثم وجود مايمكن ان يسمى بعلاقات الوجه للوجه ، وهو مايساعد على تطور التضامن ودعمه داخل الطبقة البروليتارية ، هذا بالاضافة الى ان تحدد وسائل الاتصال التى تخلقها الصناعة الكبرى ، أو التى تيسر اتصال العمال فى مختلف الجهات والمناطق ببعضهم البعض ، بحيث يؤدى هذا الاتصال الى تحويل الصراعات المحلية المتعددة ذات الطبيعة التماثلة فى كل مكان الى صراع طبقى واحد يسود المجتمع بأسره ، ومن ثم يصبح الصراع الطبقى صراعا سياسيا (٢٣٨) . ويشكل الصراع الطبقى العامل الثالث ضمن مجموعة العوامل المساعدة فى تخلق وعى الطبقة وخاصة طبقة البروليتاريا . ويخلع ماركس على عملية الصراع طابعا سياسيا . وهو يؤكد ان مجرد حدوث الصراع يعتبر دلالة رئيسية على استيضاح كل طبقة لموقفها وطبيعة أهدافها ومصالحها ، بحيث يقود ذلك الى حدوث صدام بسبب المصالح المتضادة للطبقات . وفى بادئ الأمر يقود الصدام عمال منعزلون ثم يتطور حتى يتكاتف عمال معمل واحد ثم ينظم الى الصراع عمال الفرع الصناعى الواحد فى محلة واحدة ضد البرجوازى الذى يستخدمهم . ولايكتفى العمال بتوجيه ضرباتهم الى

علاقات الانتاج البرجوازية وانما الى أدوات الانتاج – التى كانت تشكل شرطا موقفيا يقهرهم – فيتلفون الآلات ويحرقون البضائع والمصانع ، وذلك من أجل استعادة الوضع الذى ساد ابان القرون الوسطى حيث كان العامل يتمتع بالقوة وامكان الاستقلال (٢٣٩) .

يعنى ذلك ان تحقق الوعى فى المشروع الماركسى يتمثل فى ادراك البروليتاريا لمصالحها ، ومن ثم الثورة على النسق البرجوازى وتحطمه ، وليس التكيف معه على ماتذهب الوضعية . وانه اذا كانت عقلانية البرجوازية تسعى الى تحديد الأسلوب الرشيد لتراكم رأ« المال وسرعة دورته ، فان قصورها عن ادراك متتاليات فعلها العقلانى المحدود يقودها الى تخليق نقيضها – البروليتاريا الواعية – الذى يشكل نقيضا أو نفيا لها . وتكمن عظمة المشروع الماركسى فى دقة التوازنات بين المقولات النظرية والتفاعلات التى تجردها هذه المقولات . يتضح ذلك ان عقلانية البرجوازية وسعيها الى تراكم الربح يقودها الى تخليق بروليتاريا نافية لها . بيد أنه حينما تتأسس البروليتاريا ، فان ذكاءها العقلانى يفرض عليها ان تسعى لحقيق أهداف مجتمعية وليست طبقية وإلا خلقت نفيها كما فعلت البرجوازية سابقا . وتكمن عظمة المشروع الماركسى للعمل الضبقى حينما تشهد حركة التاريخ المتنامية توازيا للسلوك الواعى بين البرجوازية والبروليتاريا . فقبل التاريخ – قبل الثورة البروليتاريا – تحقق وعى البرجوازية على حساب الوعى الزائف للبروليتاريا ، أما بعده حيث تاريخ الانسان الحقيقى ، فان الوعى الموضوعى للبروليتاريا ، تأسس على حساب الوعى الزائف للبرجوازية ، حيث تصبح المصالح النسقية وليست الطبقية هى المقياس الحقيقى لوعى السلوك الانسانى .

خامسا : النشاط الانسانى والتعبير عن الحتمية الاجتماعية

ترتبط مقولة الارادية والحتمية فيما يتلعق بالسلوك الاجتماعى بمختلف العناصر الأخرى لنظرية الماركسية ، بيد اننا منذ البداية نرى ضرورة الاشارة الى حقيقتين بارزتين فى هذا الصدد . أولاهما ، ان السلوك أو العمل الانسانى فى أساسه ارادى لدى كارل ماركس ، ومن ثم فاللاارادية لديه حالة استثنائية فرضتها ظروف طارئة على التطور التاريخى . أما الثانية فتتمثل فى ان حالة اللاارادية ترتبط عادة بالمرحلة التى تختزل فى اطارها الطبيعة البشرية ومن ثم فتحقق اكتمال هذه الطبيعة يعنى العودة ثانية الى السلوك الارادى .

وينبثق اهتمام ماركس بمسألة ارادية السلوك أو العمل البشرى من خلال اهتمامه بالأسلوب الذى تقهر به البناءات المجتمعية المتباينة وبخاصة الأنساق الرأسمالية ، البشر ، وتفرض عليهم ان يتصرفوا بأساليب يختلف فيها كل منها عن الآخر ان لم يتناقض معه (٢٤٠)،

ذلك لأن هذا الوضع يعتبر دخيلا على الطبيعة البشرية . فى اطار ذلك نجد ان ماركس لديه تصورا عن الطبيعة البشرية فى أساسها ، حيث يؤكد ان هذه الطبيعة قد مرت بمرحلتين ، حيث كانت هذه الطبيعة فى اطار المرحلة الأولى ذات خاصية روحية اتصالية تهدف الى تحقيق ذاتها ، ومن ثم فقد كانت ذات طابع تعاونى أساسا . ويؤكد ماركس ان هذه الطبيعة سادت المرحلة البدائية الأولى . أما الطبيعة الثانية فهى التى سادت المجتمع الأسمالى المقسم الى طبقات ، حيث الطبيعة البشرية تحكمها آليات البناء الاجتماعى ، ومن ثم تعبر الطبيعة الانسانية فى هذه المرحلة عن طبيعة مغتربة عن ذاتها (٢٤١) ، وتتميز هذه الطبيعة بالطابع الصراعى . وينسجم مع تصور هذه الطبيعة تأسس نمطين للسلوك الانسانى ، الأول هو الذى يسود المرحلة البدائية أو المشاعية حيث التعبير الجوهرى عن حقيقة الطبيعة الانسانية بلا فرض لسيطرة أو تسلط . أما النمط الثانى فيتمثل فى السلوك الذى ينتمى لجهود الانسان المغترب حيث قهرت طبيعته الأساسية (٢٤٢) . فى اطار ذلك فانه اذا كان السلوك أو النشاط البشرى فى اطار الطبيعة ارادياً فانه أصبح لا ارادياً فى ظل الثانية ، حيث يأتى الانسان نشاطا له أصله فى الحتمية النسقية أو يستحيل الى قوة مضادة له وتستعبده (٢٤٣) .

ويذهب ماركس الى أن السلوك أو النشاط الانسانى من حيث طبيعته الأساسية قد مر بأربع مراحل أساسية . كان له طبيعته المتميزة فى اطار كل منها . ففى اطار المرحلة الأولى وهى المرحلة السابقة على المرحلة البدائية أو هى تشكل بدايتها ، حيث لم يكن البشر سوى كائنات عضوية فيزيقية ذات حاجات فيزيقية أساس . وككل الكائنات الفيزيقية ، فانه كان على البشر لكى يحافظوا على حياتهم ان يدخلوا فى علاقات مباشرة مع الطبيعة متفاعلين معها . فى هذه المرحلة كان هدف السلوك البشرى كالحيوان يتمثل فى دعم الحياة والحفاظ عليها ، بيد أنه أثناء هذه المرحلة تمكن البشر من انتاج بدايات الحياة الاجتماعية ، فأثناء انتاج البشر لوسائل اعاشتهم ، كانو ينتجون بطريقة غير مباشرة حياتهم المادية الواقعية . ذلك ان البشر فى تعاملهم مع الطبيعة اختلفوا عن الحيوانات فى أنهم لم يأخذوا من الطبيعة فقط ما يحتاجونه للحفاظ على حياتهم ، وانما عملوا الى جوار ذلك على انتاج وسائل اعاشاتهم . ومن ثم فالى جانب ماوجدوه متوافرا فى الطبيعة من وسائل ، فانهم عدلوه بجهودهم ، بحيث أدى ذلك فى النهاية الى تضاؤل اعتمادهم على الطبيعة . بذلك لم يكن جهد البشر مجرد تكيف والطبيعة بقدر ماكان جهدا واعيا وهادفا لتغيير الظروف الطبيعية . ومن خلال ابتكارهم للوسائل و تعديلهم فيها تمكن البشر من خلق العالم فوق العضوى للانسان a super organic ، الذى يتكون من

مصنوعاته ، وبذلك لم يعد الانسان مجرد حيوان عامل ، ولكنه انسان خلاق يعيش ويؤدى سلوكه فى اطار عالمين ، العالم الصناعى ، artifical world والعالم الطبيعى (٢٤٤) . وهو مايعنى اتفاق الماركسية فى هذا الصدد مع التفاعلية الرمزية التى تعزوا دورا بناء وفعالا للكائنات البشرية (٢٤٥) فى صياغة عالمها . بحيث تؤدى الموافقة على ذلك الى رفض تراث كامل لدى علماء الاجتماع تجاهلوا فى اطره كلية الجوانب المثمرة والخلاقة للنشاط البشرى (٢٤٦) . ويمكننا القول انه تصديقا مع الماركسية فان الانسان فى سلوكه لم يكن خاضعا للحتمية الاجتماعية لأن الأخيرة لم تكن قد تخلقت بعد ، ومن ثم فقد كان فعله ارادياً عند هذا المستوى ، ماعدا الخضوع لقدر بسيط من سيطرة الحتمية البيلوجية والطبيعية حيث كان فعله محكوما أما بواسطة الظروف الطبيعية الخارجية أو أشباع الحاجات الأساسية الكائنة فى بنائه الدافعى .

وتشكل المرحلة البدائية المرحلة الثانية فى هذا التدرج وهى المرحلة التى غاب عنها التخصص أو تقسيم العمل ، ومن ثم لم يكن المجتمع الطبقى قد ظهر بعد . فى هذه المرحلة نظرا لامتلاك الانسان لامكاناته المبدعة . فانه كان بامكانه التعبير عن حياته فى شكل موضوعات حقيقية محسوسة ، ومن ثم فالى جانب كون الانسان طبيعيا هادفا فانه أصبح فى ذات الوقت – عن طريق عمله – موضوعا وطبيعة خارج ذاته ، أو ان ذات الانسان أصبحت موضوعا وطبيعة (٢٤٧) . معنى ذلك ان الانسان فى هذه المرحلة تولى خلق العالم المادى الذى يعكسه ، بيد أنه الى جانب ذلك تولى خلق الثقافة والبناء الفوقى لكى ينظم علاقاته بالطبيعة والآخرين من البشر . وأصبح السلوك الانسانى فى هذه المرحلة ليس إلا تعبيرا عن الجوانب المتعددة للطبيعة البشرية ، وأصبح الموضوع الاجتماعى تعبيرا عن الذات الانسانية وامتدادا لها (٢٤٨) ، تصنعه بشكل ارادى أو تتعاون فى صناعته مع الآخرين من البشر . ومن هنا نستطيع ان نؤكد ان العمل فى هذه المرحلة اتسم بالطابع الارادى ، فهو قد تخلص من الحتمية البيلوجية والطبيعية الى حد كبير ، ولم يكن قد وقع بعد تحت طائلة الحتمية الاجتماعية التى لم يكن قد اكتمل تخليقها بعد .

ثم تأتى المرحلة الثالثة حيث نشأة المجتمع الطبقى الذى تضمن نماذج عديدة آخرها النظام الرأسمالى . وتصل هذه المرحلة الى قمة نضجها حينما يتأسس العمل فى المجتمع الصناعى ويتحول العامل البروليتارى من كلية منتجة الى جزئية فى اطار وظيفة جزئية (٢٤٩) . وبذلك تختفى استقلالية العامل ، فبعد ان كان مستقلا يعكس ذاته على الحياة الاجتماعية من

خلال مايصنعه تحول الى مجرد تابع فى عملية انتاجية لايتحكم فيها وانما يخضع لمتطلباتها ، وافتقد سلوكه بذلك طابعه الارادى . وتسود هذه المرحلة السلوك أو النشاط اللارادى ، حيث تتحكم فى حركة المجتمع مجموعة من القوانين الأساسية التى تؤدى فاعليتها مستقلة تماما عن الارادة والوعى البشرى (٢٥٠) . بل اننا نجد ان الأفعال والتجديدات البشرية وان بدت ظاهريا من عمل الارادة البشرية ، إلا أنها فى حقيقة الأمر تخضع لحتمية مجموعتين من لقوانين . المجموعة الأولى تتمثل فى اقوانين المتصلة بنمو العالم الخارجى ، أما المجموعة الثانية فتتصل بقوانين الفكر البشرى . وذلك يعنى انه بينما يؤسس البشر التغيرات الاجتماعية نانها لكى تصبح فعالة ينبغى ان تتلاءم مع القوانين الكامنة والتى تؤدى فاعليتها بغض الظر عن الارادة أو القصد ، أو حتى وعى الكائنات البشرية (٢٥١) .

فى اطار هذه الفترة نجد ان البشر فى الموقف الرأسمالى ينجزون أعمالا لاتعبر عن طبيعتهم الأساسية ، ومن ثم فتأسيسهم لهذه الأعمال لايشير الى ارادتهم ، وقصدهم وانما الى قهر الحتمية النسقية لهم . فالنشاط على مايذهب ماركس لايصبح ارادياً ، وانما هو يصبح نشاطا منقسما على ذاته ، ويصبح ناتج عمل الانسان قوة مغتربة عنه ومضادة له تستعبده بدلا من ان يسيطر عليها ، ويصبح لكل انسان نشاطه المحدد المفروض عليه والذى لايمكنه الخروج عنه (٢٥٢) . بل اننا اذا تفحصنا طبيعة النشاط البرجوازى سوف نجد انه يصدر عن حالة من اللارادية أيضا . فالنسق يخلق لكل فرد موقعه الذى عليه ان يؤدى دوره من خلاله ، ومن ثم فالاستغلال بالنسبة لماركس لاتلام عليه أنانية أو عدم وعى المستخدم الرأسمالى ، حيث ان هذا المستخدم مفروض عليه ان يؤدى سلوكه على النحو المطلوب منه خلال الموقف الطبقى الموضوع فيه وإلا عرض نفسه للموت من خلال الصراع التنافسى (٢٥٣) . وبالمثل فاننا نجد ان العامل البروليتارى يخلق بعمله عالما قويا مضادا له . فهو وان كان يضع ذاته فى الموضوع الذى يصنعه ، فان ذاته لم تعد تنتمى اليه وانما الى الموضوع الذى صنعه ، ومن ثم فكلما جسد ذاته فى عمله انتفت ذاته ، ومن ثم فالحياة التى يخلعها على الشئ المصنوع تواجهه كموضوع معادى له ومغترب عنه (٢٥٤) . واذا كان العمل الذى يأتيه العامل هو تأكيد لذاته فان العامل أثناء عمله لايؤكد ذاته وانما ينكرها ، لايطور طاقاته العقلية أو الفيزيقية ولكه يقتل جسمه ويحطم عقله . ويشعر العامل بذاته حينما يكون خارج عمله ونشاطه ، وفى عمله يشعر انه خارج ذاته . فهو يكون على سجيته عندما لايكون فى عمله ، وحينئذ لايكون عمله ارادياً ، ولكنه

قهريا ، فهو مجبر على فعل ذلك ، ويصبح العمل ليس لاشباع حاجاته ، وانما وسيلة لاشباع حاجات خارجه عنه (٢٥٥) .

بيد ان التطور الحتمى للنظام الرأسمالى يقود الى نفى هذه الحالة اللارادية القاهرة للانسان – بروليتاريا كان أم برجوازيا – واذا كانت القوانين الحتمية هى التى تتولى تأسيس الانهيار الحتمى للنظام الرأسمالى . فان الارادة البشرية يمكن ان تستعيد فاعليتها لكى تصبح عاملا مساعدا خلال هذه المرحلة . اذ يؤكد جون ماكليش ان الفرد ينبغى ان يكون متضمنا فى عملية تغيير الواقع ، وان المغير أو المبتكر الاجتماعى يمكن ان ينجح بدرجة أفضل اذا هو اختار بوعى موقعا طبقيا ووجهة نظر ملتزمة ، وعلى هذا الأساس فقط فانه يبدأ فى ادراك علاقات القوى الاجتماعية ، ويكون قادرا على التنبؤ بالحركة الانبثاقية لقوى وعلاقات الانتاج فى فترة تاريخية معينة (٢٥٦) . وفى هذا الصدد تستعيد البروليتاريا – من خلال الثورة البروليتارية – ارادتها فى النشاط أو العمل ثانية ، بحيث يتحقق ذلك بالنظر الى أربعة عوامل أساسية . أول هذه العوامل ان حركة البروليتاريا لاستعادة ذاتها على خلاف حركة الأقليات ، هى حركة تقوم بها الأكثيرة الساحقة فى سبيل مصلحة الأكثرية الساحقة أيضا (٢٥٧) . ومن ثم فان ذلك يعنى ان غالبية البشر فى النسق الرأسمالى دفعتهم ظروف لأن يقفوا فى جانب الثورة ورفض الوضع القائم الذى يعنى قهرا لهذه الأغلبية . أما العامل الثانى فيتحقق ببروز عنصر الوعى حينما تتصادم المصالح الطبقية . فى اطار ذلك يصبح الفاعل البروليتارى مدفوعا – بشكل حتمى – نحو ادراك الارتباطات بين مناشط الطبقة التى يعاديها فى المصنع أو الدولة أو الدين . ومن خلال فهمه الطبقى الكامل فان مصالح العامل البروليتارى تقترب من ادراكها بوعى موضوعى خالص . حيث يدرك انه من أجل ان يحصل على حريته ، ومن أجل سيطرته الكاملة على مصالحه ، فانه يجد انه لم يعد مجديا ان يطلب أجورا أعلى ، ولكن عليه ان يبذل جهودا ينتظم من خلالها مع رفاقه الذين يشغلون نفس الموقف الطبقى . ومن ثم يكون عليه ان يدخل فى مرحلة الصراع الطبقى ويصبح الصراع الطبقى صريحا لايخطئه أى شخص (٢٥٨) . ثم يأتى العامل الثالث حيث تتكاتف الارادات لتحقيق التغير المنشود من وراء الصراع الطبقى . وتصر الماركسية على ان المجتمع فى هذا الصدد يتكون من البشر الواعين الذين يعلمون بارادة وعاطفة نحو تحقيق أهداف محددة . ومن ثم لايصبح التغير الاجتماعى نتاجا لقوى لا شخصية عمياء ، وانما هو نتيجة لتقابل ارادات وأفعال بشرية لاحصر لها . اذ لايحدث شئ بدون غرض

واع ، وبدون هدف انسانى منشود . غير انه ينبغى ان يكون واضحا انه ليست هناك ارادة بشرية بعينها تتحكم فى قوى الأحداث ، وانما الارادة العامة التى تعتبر قرارا متوسطا قد لايرغبه فرد بعينه (٢٥٩) .

فاذا تخلق الموقف الصراعى الذى تدرك من خلاله الأطراف مصالحها ، فانه يستتبع ذلك تحرك الارادة العامة الواعية للبروليتاريا بفعل ارادى تحطم من خلاله أسلوب التملك الخاص بالطبقة البرجوازية وتؤسس دكتاتورية البروليتاريا ، ويبدأ الانسان فى استعادة ارادته كمقدمة لتأسيس المجتمع الشيوعى . وبتأسيس المجتمع الشيوعى تبدأ المرحلة الرابعة حيث يستعيد النشاط الانسانى ارادته . ورغم غياب تصور كامل متماسك لطبيعة المجتمع الشيوعى من خلال الكتابات الماركسية عنه ، إلا أن المتوافر من هذه الكتابات يصبح كافيا لإلقاء الضوء على طبيعة السلوك فى هذه المرحلة . حيث يؤكد ماركس فى اطار ذلكل على حتمية اختفاء الطبقات وتقسيم العمل المرتبط بها فى هذا المجتمع . اذ تعجز العمليات الميكانيكية والكيميائية عن توفير الانتاج الزراعى والصناعى بالمستويات المطلوبة لاشباع الحاجات ، ومن ثم يكون التركيز على تطوير قدرات البشر المستفيدون من هذه العمليات . ومثلما غير الفلاحون والحرفيون أسلوب حياتهم فى القرن الماضى ، ومن ثم أصبحوا بشرا مختلفين تماما حينما فرضت عليهم حياتهم فى اطار الصناعة الكبيرة . وبتفس الأسلوب ، فان السيطرة المشاعية على الانتاج بواسطة المجتمع ككل ، بالاضافة الى ان التطور الجديد سوف يتطلب مادة بشرية جديدة . لذا فان البشر لن يعودوا كما هم اليوم خاضعين لفرع انتاجى واحد ، مرتبطين به ومستغلين بواسطته ، ومن ثم يطورون احدى ملكاتهم على حساب الملكات الأخرى . وانما سوف تكون الصناعة محكومة بواسطة المجتمع ككل وتعمل وفق خطة تفترض الوجود السعيد للكائنات البشرية ، وتعمل على تنمية قدراتهم بأسلوب مماثل ، لكى يكونوا قادرين على رؤية النظام الصناعى بكامل كليته .

ويؤكد ماركس ان تقسيم العمل الذى يصنع من هذا فلاحا أو آخر طارقا للنحاس وثالثا عاملا فى مصنع ورابعا حارس مخزن ، سوف يختفى من المجتمع الشيوعى . سوف يتعلم الصغار ان يكونوا على ألفة بكل نظام الانتاج ، ومن ثم يعبرون من فرع انتاجى الى فرع آخر استجابة لحاجات المجتمع وميولهم الشخصية . سوف يتحررون من الطبيعة الأحادية التى يتميز بها تقسيم العمل اليومى ، والذى لها قهرها على كل انسان . سوف يجعل المجتمع الشيوعى من الممكن لأعضائه أن يطوروا قدراتهم ، سوف لايكون هناك مجال محدد لأى فرد وانما ينجز

كل فرد فى اطار المكان الذى يرغب فيه . سف ينظم المجتمع الانتاج العام ومن ثم يجعل من الممكن لى أن أقوم بعمل ما اليوم وآخر فى الغد ، أن أعمل بالصيد فى الصباح وان اصطاد السمك بعد الظهيرة ، ان أرعى الماشية فى المساء وان أنقد الشعر بعد العشاء ، حيث أنه بدون عقلى لن أصبح صيادا أو صائد سمك ماهرا ، أو راعى ماشية أو ناقدا للشعر [٢٦٠] . ذلك يعنى عودة دائرية جديدة ولكنها واعية الآن الى المرحلة البدائية حيث يتحكم الانسان اراديا ، فى عمله وصناعة واقعه الذى يعكس ذاته من خلال العمل الشامل ، والذى يتيح أعمال كل قدرات الانسان دون اختزاله الى قدرة واحدة .

سادسا : الثورة البروليتارية ، ونفى النظام الرأسمالى

تعتبر واقعة الثورة البروليتارية واقعة فاصلة فى المشروع الماركسى . ففيها يتحقق المنهج الجدلى ، حينما تشكل الثورة الاطار الذى يتم فى نطاقه التآلف ، وفيها أيضا يكتمل الواقع العينى ، حيث يتحقق الامكان الذى كان مسلوبا فى اطار واقع زائف . ثم هى بعد ذلك الهدف الذى تتحرك نحوه تكوينات ماقبل التاريخ ، لكى يبدأ بها التاريخ الحقيقى للانسان . ورغم ان الثورة فعل أو ممارسة ، فانها فى المشروع الماركسى تشكل الواقعة التى تنتهى اليها كافة التحليلات العلمية ، وتتبدى خصوصية أهميتها فى اطار هذا المشروع بالنظر الى مسألتين . أولاهما أن ماركس يرفض التصور الوضعى لوظيفة العلم الذى يقنع بدراسة الواقع كما هو بهدف الكشف عن اطراداته والقوانين التى تحكم تفاعله ، بينما هو يعتبر الفكر الجدلى اطارا عقلانيا لفضح النظام البرجوازى ومنظرية المحترفين . فالى جانب أهمية الحالة الراهنة نجده يسلم فى ذات الوقت بامكانية نفيها ، ومن ثم انهيارها الحتمى . اذ ينظر الفكر الماركسى الى كل شكل اجتماعى نشأ أو تطور تاريخيا على أنه حركة منسابة Fluid ، ومن ثم فهو يعطى اعتبارا لطبيعته الانتقالية التى لاتقل بحال من الأحوال عن وجوده العابر ، لأن هذا الفكر فى جوهره نقدى وثورى أيضا [٢٦١] . أما المسألة الثانية فتتعلق بموقف النظرية الماركسية من الواقع ، من حيث حقائقه وتفاعلاته . ولاشك ان ماذهب اليه هيجل قد شكل أساسا واضحا بالنسبة لوجهة النظر الماركسية فى هذا الصدد . اذ رأى هيجل ان ماهو حقيقى يتأسس من خلال تجاوز ماهو سلبى ، ومن ثم يتطلب ماهو حقيقى انتفاء حالة الأشياء كما هى عليه الآن [٢٦١] . استنادا الى ذلك يؤكد ماركس ان ماهو كائن ينبغى أن يخضع دائما للنقد والتحدى ، وذلك للكشف عن الامكانات الكامنة بداخله ، فليس باستطاعة الانسان أن يستوعب

النظام الكائن ، بغض النظر عن تحرير امكاناته اذا لم يواجهه بشكل نقدى حتى يتمكن من تجاوزه نهائيا . ذلك لأن المعطيات الواقعية ليست ذات طابع ايجابى بطبيعتها ، والنظام الواقعى ليس مقدسا الى الدرجة التى تحرم المساس به . وعلى لعكس من ذلك ، مادام النظام القائم يفرض شروط وجود لا أنسانية على البشر ، ومادامو أقل مما ينبغى أن يكونوا عليه ، فان البشر الحق فى تغيير هذا النظام (٢٦٣) . ويعنى ذلك ان ماركس يرفض الحقائق كما تتبدى لنا الآن ، أو كما تظهر لنا بشكل مباشر أو غير مباشر من خلال مقولات صورية (٢٦٤) .

وفى أعقاب توضيح محورية الثورة البروليتارية فى اطار المشروع الماركسى ، نحاول توضيح الظروف البنائية التى تمهد لقيام الثورة ، ثم قيامها وتأسيس دكتاتورية البروليتاريا ، والمجتمع الشيوعى الذى سوف يتلو ذلك . ولتوضيح الظروف البنائية الممهدة للثورة نرى استعراضها فى اطار ثلاثة أنماط من التفاعل . ويتمثل النمط الأول فى طبيعة العمليات البنائية التى أدت الى انهيار النسق الرأسمالى ، ومن ثم الممهدة للثورة . أما النمط الثانى فيتمثل فى العوامل المتعلقة بعناصر الموقف الرأسمالى ، والانهيار الذى قد ينتاب هذه العناصر ، أما النمط الثالث فيتعلق بطبيعة العملية الثورية ذاتها ، من حيث عملياتها المرحلية والتفاعل الذى يميز كل مرحلة .

ويتحدد النمط الأول للتفاعل من خلال أربع عمليات بنائية يؤدى وقوعها الى انهيار النسق الرأسمالى ، ومن ثم فهى تمهد للثورة البروليتارية . هذه العمليات هى الاغتراب ، تناقص الربح أو فائض القيمة ، الافقار البروليتارى والمركزية والتركز على الصعيد الرأسمالى . وفيما يتعلق بعملية الاغتراب أوضحنا انها عملية تجعل كل مكونات الموقف الرأسمالى تعمل على نفى ذاتها . وقلنا أنه اذا كان التعاون هو أصل التفاعل الاجتماعى كما تحقق فى المشاعية البدائية ، فان ارتكاز التاريخ الطبقى على الصراع يعنى ان ثمة اغترابا ونفيا لهذه الحالة الأصلية قد حدث . واذا كان الانسان فى أساسه كليا متكاملا يمتلك قدرات وامكانات كلية كما هى الحال فى المشاعية البدائية فانه الآن ينقسم على ذاته حيث البرجوازية فى ناحية والبروليتاريا فى ناحية أخرى . بل اننا نجد ان كلا من البرجوازية والبروليتايا قد اشتركتا فى نوع من التفاعل الذى يعمل من خلاله كل منهما على نفى الآخر ، وعلى نفى ذاته فى نفس الوقت . ونتاجا لذلك تخلق لدينا موقف اجتماعى مغترب العناصر ، أو مغترب من حيث طبيعة التفاعل التذى تسوده ، بحيث تتجه دينامياته نحو نفيه ، وهو ماعرضنا له باسهاب فى معالجة

قضية الاغتراب . مايعنينا فى هذا الصدد ان حالة الاغتراب هذه تنتشر فى مختلف مجالات البناء الرأسمالى فتشكل نفيا كامنا فى اطاره ، أو بدءا حاضرا لثورة مستقبلية .

أما العملية الثانية فتتمثل فى تناقص الربح أو العائد الذى يعتبر أساسا للتراكم الرأسمالى . فى أطار ذلك يؤكد ماركس أن البحث عن الربح يعتبر مسألة جوهرية بالنسبة لنظام الرأسمالى ، حيث يكمن هدف رأس المال ليس فى اشباع حاجات معينة ، ولكن فى انتاج الربح (٢٦٥) . غير أنه بعد بلوغ الاقتصاد الرأسمالى الى مرحلة معينة فاننا نجد أن لديه ميلا بنائيا موروثا نحو تناقص الربح ، ويعبر عنها ماركس (بقانون الميل المتناقص لمعدل الربح) . ويكمن اسهام ماركس الحقيقى فى توضيح هذه النظرية من خلال تحليله للتركيب العضوى لرأس المال ، ثم علاقة الأخير بفائض القيمة . حيث يعتمد الحجم الكلى للربح فى الاقتصاد الرأسمالى على فائض القيمة المتخلفة فى اطاره . حيث تحدد نسبة رأس المال الثابت constant الى رأس المال الجارى فى الاقتصاد ككل فى المتوسط معدل الربح المتاح . فى هذا الاطار نجد ان معدل الربح يقف على تناسب عكسى والتركيب العضوى لرأس المال . ولما كانت الرأسمالية تستند أساسا الى البحث عن الربح من خلال المنافسة . فان التحسينات التكنولوجية التى تتضمن زيادة ميكنة الانتاج تعتبر سلاحا هاما فى المعركة من أجل البقاء فى اطار السوق . حيث يستطيع صاحب العمل أن يضاعف من نصيبه فى الربح المتيسر من خلال الانتاج بثمن أرخص من قدرة منافسيه ، غير أن نجاحه فى الحصول على ارباح متزايدة يقود الرأسماليين الأخرين الى أن يسلكوا نفس السبيل بان يستحدثوا تحسينات فنيه جديدة ومن ثم يؤسسون توازنا مرحليا جديدا داخل موقف المنافسة الرأسمالى . ويعنى ذلك انه يصبح مفروضا على كل رأسمالى ان ينفق نسبة عالية من رأسماله على رأس المال الثابت أكثر من قبل . وتكون النتيجة الحتمية لذلك هى ارتفاع التركيب العضوى لرأس المال ومن ثم التناقص فى معدل الربح (٢٦٦) . بيد أن هذا التناقص فى معدل الربح قد يتم تجاوزه بفعل عدة عوامل مثل ان يصاحب الزيادة فى الانفاق على رأس المال الثابت زيادة فى انتاجية العمل ، ومن ثم يقلل الى حد كبير قيمة الوحدة النسبية لرأس المال الثابت . وذلك يعنى الابقاء على معدل الربح ثابتا أو حتى يرفعه . أما بالنظر الى رأس المال الكلى ، فان قيمة رأس المال الثابت لاتزيد بنفس حجمه المادى (٢٦٧) بالاضافة الى ذلك هناك أسلوب آخر لايقاف معدل الربح المتناقص عن طريق تغذية الانتاج بمادة خام رخيصة تستجلب من المستعمرات ، وهو مايؤدى الى رفع هذا المعدل . هذا

بالاضافة الى تعميق استغلال العمال أما عن طريق زيادة وقت يوم العمل ، أو بتخفيض الأجور عن قيمتها ، أو الاستخدام المكثف للآلية القائمة ، عن طريق الاسراع فى أعمالها أو دورتها ، أو الاستفادة منها على مدى ٢٤ ساعة فى اليوم عن طريق نظام الدوريات . ويؤكد كارل ماركس أن النسق الرأسمالى يعانى من أزمات كثيرة كهذه بشكل دورى ، وذلك نظرا لطبيعة التناقضات الكامنة فى داخله . ثم يذهب الى أنه مادام رفع معدل الربح هو الدافع الفعال وراء آليات هذا النظام . فان أى وضع قد يشير الى عدم التوازن بين حجم السلع المنتجة من ناحية وامكان بيعها بمتوسط معدل ربح ملائم قد يشكل أزمة بالنسبة للنسق الرأسمالى . وبالنظر الى ذلك يعتبر النظام الرأسمالى أول نظام اقتصادى فى التاريخ البشرى يجعل من الممكن تحقيق حجم كبير من الانتاج الزائد عن الحاجة . ومن ثم فاذا لم يحدث تصريف مماثل لهذا الانتاج فان العائد قد يقل ومن ثم يميل معدل الربح الى التناقص ثانية (٢٦٨) . وتبدأ الازمة حينما يحدث توسيع فى الانتاج الى مافوق السوق على الاستيعاب . وذلك لهدف تحقيق معدل ملائم من الربح . ذلك أنه بمجرد أن تحدث زيادة كبيرة فى الانتاج فى أحد الأقسام الانتاجية للنظام الاقتصادى فانها تدفع الى الدوران درة كاملة من ردود الفعل . وبمجرد أن يهبط معدل الربح ، تتضاءل الاستثمارات . ويستغنى صاحب العمل عن قدر كبير من قوة العمل ، ومن ثم تقل القوة الشرائية المستهلكة ، بحيث يؤدى ذلك الى هبوط آخر فى معدل الربح وهكذا ، يستمر الدوران حتى تتزايد البطالة ، وتخفض أجور من هم فى العمل ، وذلك حتى تتخلق الظروف لمعدل ملائم من فائض القيمة ، بحيث يعتبر ذلك اذا تحقق دافعا جديدا الى الاستثمار . وعادة مايحدث خلال أزمة النظام الرأسمالى أن تنهار المشروعات الأقل كفاءة ومن ثم تخرج من مجال المنافسة . بينما تلك التى صمدت لها نصيبها فى السوق ، وتكون أمامها الفرصة لكى تبدأ فترة جديدة من التوسع (٢٦٩) . ويحدث نتيجة لهذه الأزمات المتتالية أن تتجه آليات النظام الاقتصادى الى تركز أكثر لرأس المال بهدف الدعم المؤقت للنسق الرأسمالى . فى اطار هذه العملية يصبح رأس المال هو العائق الحقيقى أمام الانتاج الرأسمالى . ومن ثم يتضح أنه فى اطار النظام الاقتصادى الرأسمالى فان رأس المال وضرورة توسيعه وتراكمه يشكل نقطة البداية والنهاية أيضا ، حيث هو الدافع الى الانتاج وهو غرضه كذلك . ومن ثم فالانتاج فى اطار هذا النظام هو انتاج من أجل رأس المال وليس العكس ، ووسائل الانتاج ـ هى إلا وسائل للتوسع الدائم لعملية حياة مجتمع المنتجين (٢٧٠) .

وتعتبر عملية الأفقار Pauperisation العملية البنائية الثالثة فى اطار عملية الانهيار البنائى التى تمهد لقيام الثورة . ويعرض ماركس لهذه العملية من خلال ادراكه ان التحلل النهائى للرأسمالية يتخذ شكل أزمة هائلة لايستطيع النظام الفكاك منها . ويؤكد ماركس ان مناخ الأزمات هذا يؤدى دورا هاما فى تقوية الوعى الثورى ، لأنها توضح بشكل درامى الموقف الطبقى المشترك للبروليتاريا . أما فيما يتعلق بعلاقة البروليتاريا بأزمات النسق الرأسمالى فى هذه المرحلة ، فأننا نجد أن ماركس يؤكد أنه من النادر ان تسود الاقتصاد الرأسمالى حالة من العمالة الكاملة ، حيث توجد مجموعة دائمة من العاطلين ، يسميهم جيش الاحتياط الصناعى ، وهو الجيش الضرورى بالنسبة للرأسمالية . حيث نجده يوضح فى أكثر من موضع أن من الخواص الأساسية للرأسمالية ان قوة العمل ذاتها تصبح سلعة . غير انها وان كانت سلعة إلا أنها تختلف عن السلع الأخرى . فاذا ارتفع ثمن السلعة من النوع العادى فان رأس المال سوف يميل الى الاتجاه نحو انتاج هذه السلعة ، ومن ثم سوف ينزل بالثمن حتى قيمة السلعة . بيد أنه ليس هناك شخص يستطيع أن ينتج عملا أكثر اذا ارتفع ثمنه ، أى أجره . استجابة لذلك يقدم ماركس مفهوم جيش الاحتياط الصناعى كما يحلو له أن يسميه أحيانا ويقصد به (الفائض السكانى النسبى) ، ويؤدى جيش الاحتياط الصناعى ، بكل رتبه التى يمثلها العمال الفائضون بسبب الميكنة ، دوره كضاغط دائم على الأجور . وبذلك فانه فى فترات الرخاء ، وحينما تتزايد الحاجة الى العمال يصبح جزءا من جيش الاحتياط مستوعبا فى قوة العمل ، ومن ثم يهبط بالأجور الى مستوياتها الدنيا . بينما فى أوقات أخرى ، تصبح هذه العمالة مصدرا أساسيا للعمل الرخيص الذى يعوق أى محاولة من قبل الطبقة العاملة لتحسين أوضاعها . بذلك يعتبر جيش الاحتياط الصناعى (كلية lever التراكم الرأسمالى) ويعتبر شرطا لوجود أسلوب الانتاج الرأسمالى (٢٧١) . ويكشف تحليل وضع جيش احتياطى العمالة الفائضة عن اتصاله بمناقشة ماركس للفقر الفيزيقى الذى يفرض على شريحة كبيرة من الطبقة العاملة من قبل النظام الرأسمالى التى عليها ان توجد فى اطاره . ووفقا لنظريته العامة فى فائض القيمة نجد ان ماركس يتحدث عن الاستغلال المتزايد للعامل كلما تقدمت الرأسمالية . بيد ان معدل الاستغلال (معدل فائض القيمة) من الممكن أن يتزايد بدون ان يتضمن بالضرورة تغيرا فى الأجور الحقيقية لغالبية الطبقةالعاملة . ويؤكد ماركس ، أثناء عرضه لنظريته العامة فى فائض القيمة التى قدمها فى كتابه رأس المال انه بينما يراكم الرأسمالى ثروته أكثر فأكثر

، فان أجور الطبقة العاملة لايمكن ان ترتفع فى ذات الوقت الى مافوق حد الكفاف [٢٧٣] . فى اطار ذلك فان زيادة الحجم النسبى لجيش الاحتياط الصناعى ، يؤدى الى توسيع الاملاق المزمن . حيث تتركز أبشع أشكال الاستغلال المادى ، اذ تتعرض الفئة التى تخضع لهذه الظروف لتراكم البؤس misery وكرب العمل Agony of labour والعبودية ، والجهل ، والوحشية brutality والانحلال الأخلاقى [٢٧٣] . من هنا نجد ان الطبيعة المتناقضة للرأسمالية تكشف عن نفسها من خلال تراكم الثروة فى ناحية ، وتراكم البؤس والفقر فى ناحية أخرى .

وتعتبر عملية التركز Concentration والمركزية Centralization العملية البذئية الرابعة التى تعمل على الانهيار الحتمى للنظام الرأسمالى . ويقصد بالتركز العملية التى ينجح من خلالها الأفراد – اذا هم راكموا رأس المال – فى زيادة كمية رأس المال التى تحت سيطرتهم – بينما تشير المركزية من ناحية أخرى الى اندماج رؤوس الأموال الموجودة ، ومن ثم حدوث تغيير فى توزيع رأس المال الموجود فعلا . وتقود كل من هاتين العمليتين الى تأسيس وحد ت انتاجية أكبر وأكبر . اذ تفرض الطبيعة التنافسية للرأسمالية على المنتجين ان يناضلوا من أجل تخفيض أثمان سلعهم عن السلع المناظرة للمنافسين لهم . وبذلك فان الرأسماليين الذين يسيطرون على التنظيمات الأكبر يتمتعون بميزات عديدة على صغار المنتجين . ومن ثم يتاح لهم الانتصار عليهم . وكلما كانت المصادر التى تحت سيطرة الشخص الرأسمالى أكبر ، كان قادرا على الانتاج بكفاءة ، مادام سوف يتبع أسلوب الانتاج الواسع ومن ثم يستطيع أن يتحمل الصدمات التى قد تنتج عن تقلبات السوق . وكقاعدة عامة ، فانه فى اطار هذا النمط من التفاعل ، تميل الوحدات الأكبر على أبعاد الوحدات الصغيرة عن سوق العمل ، ومن ثم تستوعب رأسمالها .

ويرافق تركز المشروعات الانتاجية ، مركزية رأس المال ، حيث ينشأ نظام البنوك الذى يعنى جمع المال من المدخرين ، ومنحه للمستلفين . بحيث تتحول هذه العملية بكاملها الى ميكانيزم اجتماعى هائل يشير الى مركزية رأس المال [٢٧٤] . وتعنى هذه العملية ضمنيا ألغاء توزيع رأس المال الخاص فى أيدى الرأسماليين الأفراد . ومن هنا فهذا النظام يلغى الطابع الخاص لرأس المال ، ويقضى على طابعه الخاص . وعن طريق اجراءات وأشكال التداول الأخرى غير المال فان هذا النظام يبرز حقيقة أن النقود ليست أكثر من تعبير عن الطابع الاجتماعى للعمل ومنتجاته . غير انه مادام نظام التسليف Credit System يعتبر فى حد ذاته

مشروعا رأسماليا ، يهدف هو الآخر الى الربح الخاص المستند ال فوائد الديون ، فانه سوف يلعب دورا كمحرك قوى أثناء الانتقال من أسلوب الانتاج الرأسمالى الى أسلوب العمل المترابط associated labour فى الانتاج (٢٧٥) .

وكنتيجة لعملية تركز المشروعات الصناعية وتعمقها ، ومركزية رأس المال تنشأ شركات المحاصة Joint-stock company ، حيث يمثل تطور هذا النمط من الشركات التطور النهائى للانتاج الرأسمالى ، حيث تشهد هذه المرحلة الانفصال بين الرأسمالى صاحب المشروع ، وبين المشروع كتنظيم منتج ، وهو مايعنى ألغاء أسلوب الانتاج الرأسمالى داخل أسلوب الانتاج الرأسمالى ذاته (٢٧٦) . ويوضح الانفصال بين ملاك رأس المال من ناحية والمديرين من ناحية أخرى هامشية أو عدم ضرورية الجماعة الأولى التى لم تعد تؤدى الآن دورا مباشرا فى عملية الانتاج ، ومن ثم تبرز حقيقة ان عددا قليلا من الأفراد من خلال ملكيتهم لرأس المال يحصلون على قدر كبير من الثورة المنتجة . غير أنه حتى هذه المرحلة تعتبر شركات المحاصة مجرد مرحلة فى اطار النظام الرأسمالى . وفضلاً عن ذلك فان نمو الشركات الكبيرة من هذا النوع يؤدى الى السيطرة الاحتكارية فى اطار اقسام معينة من الصناعة ، خالقة بذلك أنواعا عديدة من علاقات الاستغلال الجديدة (٢٧٧) .

ومعنى ذلك ان كل هذه العمليات تجعل من النسق الرأسمالى نسقا غير مستقل يحتوى على عديد من المتناقضات الناتجه أساسا عن طابعه الاستغلالى الطبقى ، ومن العلاقة غير المتناسقة بين رأس المال والعمل المأجور . ومن ثم فان تشغيل أسلوب الانتاج الرأسمالى سوف يدفع حتما النسق نحو التحلل أو الانهيار وهنا نجد ان كارل ماركس يتحدث ثانية عن نفى النظام الرأسمالى ، أو الميل التاريخى نحو ألغاء أسلوب الانتاج الرأسمالى ، حتى يتحقق الانهيار الكامل للنظام الرأسمالى ، وتبدأ الاشتراكية من جديد . بل انه على العكس من ذلك ، نجد ان الميل الانبثاقى لحركة النسق الرأسمالى تولد الظروف الاجتماعية التى تساعد على تجاوزه .

ويتعلق النمط الثانى من التفاعل الذى يؤدى الى انهيار النظام الرأسمالى بالبشر الذين يشكلون العناصر الرئيسية المكونة لنظام الرأسمالى . وتمثل الطبقة البرجوازية أول هذه العناصر ، فبالنظر الى كونها عنصرا فى النظام يتحول المال لديها الى هدف تسلك من أجله كل الوسائل بداية من حرمان ذاتها ونهاية باستغلال البروليتاريا بهدف تحقيق أكبر فائض

ممكن للقيمة . فى اطار ذلك نجد ان البرجوازية تدخل فى صراع ناف لذاتها على جبهات عديدة . أولها الصراع داخل البرجوازية ذاتها ، والذى يكون من نتاجه تدهور فئات البرجوازية الصغيرة ذات الرساميل الصغيرة نتيجة لمنافسة البرجوازيين الكبار لهم ، أو نتيجة لتخلف وسائلها الانتاجية ، ومن ثم تنحدر الى البروليتاريا ، حيث تتولى الأخيرة تجنيد أفرادها من بين كل الطبقات (٢٧٨) . أما الصراع الثانى الذى تقوده البرجوازية فهو ضد البروليتاريا ، وبذلك نجد ان البرجوازية تخلق بروليتاريا كبيرة أثناء سعيها الدؤوب لتحقيق أكبر فائض قيمة ممكن . وتحت وطأة القهر الذى تفرضه على البروليتاريا ، أما فى اطار ظروف العمل ، أو من خلال الأجر المنخفض فانها تخلق الظروف لنمو البروليتاريا كوحدة طبقية ، ومن ثم إتجاهها نحو الصراع السياسى كمدخل للتغلب على ظروف قهرها الذى لن يكون سوى القضاء على النظام البرجوازى ذاته (٢٧٩) ، بالاضافة الى ذلك فان عجز البرجوازية عن السيطرة على الموقف ، لكونها قد أصبحت عاجزة عن تأمين حد أدنى من مستوى المعيشة الملائم للبروليتاريا ، فإنها تدفع الأخيرة الى الهبوط تحت وطأة ظروف أكثر إنحطاطا . كل ذلك يجعل وجود البرجوازية منذ الآن فصاعدا غير متلائم ووجود المجتمع (٢٨٠) . هذا بالاضافة الى الهامشية التى بدأت البرجوازية تعيشها بالنظر الى عملية الانتاج والتى بدأت تفتضح بحكم آليات التركيز والمركزية الرأسمالية .

وتمثل البروليتاريا عامل الانهيار الثانى – فى اطار نمط التفاعل الثانى – المؤدى الى انهيار النظام الرأسمالى . ووفقا لما أشرنا فان سعى البرجوازية الى تحقيق الربح يجعلها تعمل على تجميع أكبر عدد ممكن من العمال فى مكان عمل واحد ، وبذلك فهى تخلق منهم شريحة متماثلة من حيث ظروفها الاجتماعية والانتاجية . غير أنه حتى هذه اللحظة لاتشكل البروليتاريا أى امكانية ثورية ، هذه الامكانية التى تتخلق بالنظر الى عاملين . أولها نمو وسائل الاتصال بين أفراد وجماعات البروليتاريا (٢٨١) ، بما يساعد على تكثيف وجود البروليتاريا واثراء تفاعلاتها وتوجهها نحو أهداف عامة وليست خاصة . أما العامل الثانى فيتمثل فى خضوعها لظروف متماثلة تقريبا ، بالاضافة الى زيادة حدّة قهر الظروف لها بما يعوق انتاجيتها ويختزل جوانب أساسية من انسانيتها . وفى محاولة للتخلص من ظروف القهر المفروضة عليها كنضالها لرفع الأجور التى تصر البرجوازية على خفضها ، بالاضافة الى مطالباتها الملحة بتحسين ظروف العمل ، فان هذه النضالات الفرعية تحول البروليتاريا من طبقة فى ذاتها الى طبقة لذاتها ،

حيث تدخل مرحلة الصراع السياسى ، الذى تمارسه مستندة الى القوة والصراع الصريح . ومن ثم محاولتها توسيع قدرتها على تشكيل الموقف وامتلاك مركز القوة ، وبالتالى القضاء بالقوة على الطبقات المضادة (٢٨٢) . وذلك بهدف الغاء ظروف الافقار والاغتراب التى تعيش فى ظلها ، وأيضا بهدف اعادة التنظيم الاجتماعى الذى يهدف بالأساس الى الغاء مختلف التناقضات داخل النظام القائم .

ويحتوى نمط التفاعل الثالث على مجموعة العوامل التى تعبر نتاجا للتفاعل بين البشر داخل النظام الرأسمالى ، وأيضا لفاعلية العمليات البنائية ذات الوطأة على التفاعل فى الموقف الاجتماعى . بحيث يتشكل من كل ذلك تفاعل له مراحله المتدرجة التى تبدأ من مختلف التناقضات التى قد تتأسس وتنتهى بقيام الثورة البروليتارية كعملية أساسية من عمليات اعادة التنظيم . ويبدأ هذا التفاعل بتقسيم العمل الذى يختزل العامل فى اطاره ، حيث يؤسس هذا التنظيم عددا من الاغترابات التى لها وطأتها على كل من البرجوازية ، والبروليتاريا على السواء ، بحيث يصبح المخرج الوحيد لتجاوز هذه الاغتراب هو تغيير النسق الاجتماعى (٢٨٣) . وهو التجاوز الذى يفرض ضرورته عاملان ، الأول انه بينما دفعت علاقات الانتاج فى بداية النظام الرأسمالى الى نمو القوى العاملة فانها أصبحت فى المرحلة الأخيرة تعوق نموها . من هنا كانت ضرورة الاطاحة بها بهدف تحقيق النمو الموضوعى لقوى الانتاج ، وهو مايبرز اتجاه البروليتاريا نحو اطلاق امكانياتها الموجودة والمحتملة فى التفاعل الاجتماعى من خلال العمل الثورى (٢٨٤) . أما العامل الثانى فيتمثل فى ان تقسيم العمل عادة ماتعمل آلياته على اخضاع العامل لسيطرة العملية الانتاجية ، بحيث تتأسس فى اطار ذلك معادلة لا انسانية تؤدى الى أنه كلما افتقد العامل ملكاته الانسانية الخلاقة ومن ثم اختزالها كان ذلك أكثر اسهاما فى نمو التنظيم الانتاجى . ومن هنا نجد ان مفهوم الاغتراب يتضمن معنى التشويه الانسانى Dehumanization المتنامى فى ظل ظروف المجتمع الصناعى الرأسمالى (٢٨٥) .

يلى ذلك فاعلية عملية الافقار البروليتارى من ناحية والتركز والمركزية الرأسمالية من ناحية أخرى ، حيث تتولى العملية الثانية تصفية الشريحة البرجوازية الى أقلية صغيرة للغاية ، بينما تهبط ببقية الشريحة البرجوازية الى مستوى الأغلبية البروليتارية ، وهنا نجد ان هذه العملية تخلق وضعا غير متوازن لبناء القوة ، حيث أقلية مالكة فى مواجهة أغلبية محدودة ، بل اننا نجد ان هذه الأقلية البرجوازية تتضح هامشيتها وتتكشف طفيليتها من خلال عملية المركزية

الرأسمالية ، حيث تؤدى نشأة نظام البنوك والشركات المحاصة الى افتقادها التدريجى لوسائل القوة والسيطرة الاجتماعية . على الجانب الآخر نجد عملية الافقار البروليتارى التى تعمل من جانبها على تعميق ظروف البؤس الذى تعيشه البروليتاريا ، وهى تسهم بشكل جانبى فى خلخلة النسق الرأسمالى عن طريق تخفيض القدرة الشرائية لهذه الطبقة . ولما كانت عملية الافقار تعنى ظروفا انسانية سيئة ولا انسانية ، فان مجموعة من العمليات الفرعية قد تعمق من فعالية الافقار . كالاتصال بين جماعات البروليتاريا ، واكتسابها الهوية الطبقية ، وادراكها الواعى لأهدافها الحقيقية .

وفى مواجهة ذلك يقدم ماركس الاجابة الثورية لكل هذه العملات كآخر مرحلة من مراحل التفاعل الرأسمالى . حيث يؤكد أنه حيثما لايمكن الغاء العمل كلية – لكونه العملية التى ينتج بواسطتها الانسان أساسيات حياته – فانه يمكن محو الاستغلال والعمل المغترب والقهر كلية من الخبرة الانسانية . حيث يجد العمال أنفسهم – وهم أكثر من يعانون من هذه الظروف – فى لحظة يستولون على رأس المال والقوة من يد القاهرين لهم . ويتحقق ذلك حينما يتكشف وعى البروليتاريا ، ومن ثم تنتظم صفوفها وتعى حركتها ، وتقدم على عمل ارادى واضح تحطم من خلاله كل متضمنات النظام الرأسمالى ، من حيث ابنيته التحتية أو الفوقية ، وعملياته الأساسية ، وبذلك تصدق الصرخة الماركسية (ياعمال العالم أتحدوا ..) فليس البروليتاريا ماتنقده – فى النظام البرجوازى – سوى قيودها وأغلالها ، لكى تربح من بعد ذلك عالما بأسره [٢٨٦] . ذلك يعنى ان الالغاء الحتمى للطبقات والصراع الطبقى سوف يصل بالبشر الى حالة يؤدى فيها النمو الحر لكل ارادة على حدة الى النمو الحر للجميع [٢٨٧] .

وتكمن عبقرية التحليل الماركسى حينما يخضع التفاعل الاجتماعى بين مكونات الموقف الرأسمالى أو فيما يتعلق بالعمليات البنائية الأساسية لقوانين حتمية تتجاوز الارادة والاختيار الفردى . فى اطار ذلك لم يهتم ماركس إلا بمسألة واحدة وأساسية ، هى ان يوضح بالبحث الاجتماعى الدقيق حتمية انتظام الشروط الاجتماعية المتتابعة ، أعنى ضرورة ان يسلم كل نظام حالى الى نظام آخر يليه بشكل حتمى ، بحيث يحدث ذات الأمر دائما ، سواء اعتقد البشر أو لم يعتقدوا فى ذلك ، سواء كانوا على وعى أو عدم وعى به . ومن ثم ينظر ماركس الى الحركة الاجتماعية كاحدى عمليات التاريخ التى تحكمها قوانين ليست مستقلة عن الارادة والوعى والذكاء البشرى فقط ، ولكنها تفرض أيضا حتميتها على الارادة والذكاء والوعى البشرى [٢٨٨]

سابعا : المجتمع الشيوعى واستعادة الكمال الانسانى

لم يطرح كارل ماركس تصورا متكامل الملامح للمجتمع الشيوعى فى كتاباته الأساسية ، وهو المجتمع الذى سوف يتخلق عن الثورة البروليتارية . ومن ثم فان محاولة تشخيص هذا المجتمع من حيث نظامه الاجتماعى ، أو من حيث طبيعة الموقف الاجتماعى فى اطاره ، أو طبيعة السلوك أو النشاط الاجتماعى كتعبير عن التفاعل بين مكونات الموقف ، انما تشتق أساسا عن أفكاره فيما يتعلق النظام الرأسمالى . بيد أن الأفكار الأساسية المتعلقة بالمجتمع الاشتراكى يمكن استنتاجها من خلال دراستين أساسيتين له بهذا الصدد . الأولى هى مخطوطات عام ١٨٤٤ 1844 Manuscripts أما الثانية فهى نقده لبرنامج جوته Critique of the Gotha program . وبرغم وضوح اصطلاحية الثانى وواقعيتها إلا أن الأفكار الأساسية التى وردت بأى منهما متماثلة الى حد كبير . والحق ان ماركس فى تأسيسه للمرحلة الأولى من الاشتراكية لم يطرح ماهو جديد ، بقدر اظهاره ماكان كامنا فى قلب المجتمع البرجوازى ، حيث طورت الأفكار الرئيسية الى امتداداتها الطبيعة .

ففيما يتعلق برأس المال مثلا ، سواء فى شكل وسائل للانتاج ، ومن ثم كشرط له ضبطه للموقف الرأسمالى ، أو كان هدفا للنشاط فى اطار هذا النظام ، حيث يعمل الانسان على تأسيس تراكمه ونموه . فان اشتراكية وسائل الانتاج تكون كامنة فى اطار النظام الرأسمالى فى شكل المركزية المتنامية للسوق والتى تكتمل بوضع نهاية للثورة الخاصة . فى هذه المرحلة تصبح الثروة مملوكة جماعيا ، حيث توزع الأجور وفقا لمبدأ ثابت ويتم حجز نصيب من اجمالى الناتج الكلى لتغطية احتياجات ادارة الانتاج ، وبناء المدارس ، والرفاهية الصحية ، وما الى ذلك (٢٨٩) ، بذلك يتحول رأس المال من شرط حاكم للموقف قاهر لأغلبية فاعلية ، الى اكتسابه الطابع الاجتماعى وتحوله الى مجرد وسيلة لتحقيق غاية أساسية هى رفاهية الانسان وكماله(٢٩٠) .

وتشكل الفوراق النوعية بين البشر فى الموقف الجبهة الثانية التى سوف تتجه نحوها الثورة الاشتراكية ، فى اطر ذلك سوف تحخافظ على تناول العمل من خلال قيمته التبادلية . بيد أنه بدلا من أن ذلك كان قاصرا على طبقة البروليتاريا ، أصبح شاملا الآن ، حيث مازال ينظر الى البشر حتى لايتم الغاؤه فى هذه المرحلة ، بل تمديده لكى يشمل كل البشر ، وتظل العلاقة بالثروة الخاصة ، علاقة للمجتمع بعالم الموضوعات (٢٩١) . ويعنى ذلك ان حرمان

البرجوازى من رأسماله الخاص يعنى تحويله الى بروليتارى ، بحيث نجد نتيجة لذلك انسانا واحدا فى الموقف الاجتماعى ، يعمل لتحقيق ثروة عامة وليست خاصة . بالاضافة الى ذلك يتم الغاء الفوارق النوعية حيث العودة الى المشاعية الأولى ، لتقوم المرأة مثلا بدور غير الذى تقوم به من حيث كونها بسيطة للانتاج (٢٩٢) . بل ان ذلك قد يمتد الى الغاء الفواصل الوطنية والقومية بين مجتمع وآخر ، ذلك لأن نضال البروليتاريا ينبغى أن يكون نضالا بين أفكار متمدينة . فى اطار ذلك يؤكد ماركس أنه بالقضاء على استعمار أمة لأخرى ، وحينما يزول تناحر الطبقات فى قلب كل أمة يزول فى الوقت نفسه العداء والحقد بين الأمم (٢٩٣) .

أما العنصر الثالث فى الموقف الذى تتجه البروليتاريا نحو الغائه فيتمثل فى بناء القوة بطابعه الرأسمالى ، الذى يتضمن الدولة كوسيلة للقمع والسيطرة والأيديولوجيا كوسيلة لنشر الوعى الزائف . بالنظر الى ذلك نجد ان ماركس من خلال نقده لبرنامج جوته يهاجم أسلوب تناول هيجل للدولة مؤكدا ضرورة تحرير أساس الدولة . فى اطار ذلك يؤكد ماركس ان هدف الحركة العمالية فيما يتعلق بالدولة ليس تحرير المجتمع من الدولة ولكن على العكس تحويل الدولة من حيث كونها عضوا مفروضا على المجتمع الى عضو خاضع تماما للمجتمع (٢٩٤) . ورغم ان ذلك سوف يتحقق تلقائيا من خلال العملية الأساسية التى سوف تعنى نفى النظام الرأسمالى ذاته . فان دكتاتورية البروليتاريا سوف تشكل هذه المرحلة الانتقالية ، وسوف تعمل على تركيز القوة السياسية الموجودة ، والتى كانت موجودة فى اطار المجتمع البرجوازى ولكن بشكل منتشر . وذلك ييسر تنفيذ برنامج مركزية الانتاج والتوزيع المحدد قبلا . حيث انه سوف تستخدم البروليتايا سطوتها السياسية لكى تنتزع تدريجيا كل رأس المال من يد البرجوازية ، ثم تعمل على تركيز كل أدوات الانتاج فى يد الدولة ، أعنى يد البروليتاريا التى تنتظم كطبقة حاكمة ، ومن ثم تعمل على زيادة القوى المنتجة بسرعة بقدر الامكان (٢٩٥) . أما فيما يتعلق بالأيديولوجيا كعنصر ثان فى بناء القوة فان جهد البروليتاريا سوف يتجه نحو الغائها بطابعها البرجوازى ، إذ انه من الضرورى الغاء قيم الدين والثقافة والفلسفة التى تنتمى الى حقب تاريخية سابقة (٢٩٦) . ومن ثم تفقد قوتها كشرط له وطأته فى الموقف الرأسمالى ، من حيث فرضها لنوع من الوعى الزائف على البروليتاريا كطبقة ولصالح البرجوازية كطبقة مضادة .

أما العنصر الرابع الذى تتجه نحو الغائه البروليتاريا فى اطار المرحلة الاشتراكية الأولى ، فتيمثل فى تقسيم العمل الاجتماعى . ففى المرحلة الانتقالية ، نجد ان المجتمع الذى

حل محل الشكل البرجوازى للمجتمع هو بالفعل مجتمع لاطبقى ، مادام قد تم القضاء على الثروة الخاصة ، غير ان سطوة السلع المادية على الحياة البشرية ككل ، ومن ثم تجاوز الاغتراب، يمكن ان يتحقق فقط عن طريق الغاء تقسيم العمل بشكله الكائن عليه فى اطار المجتمع البرجوازى . ويؤكد ماركس ان مجتمع المستقبل سوف يستبدل عامل اليوم بواسطة الانسان الكامل النمو والذى يستطيع القيام بعدة أعمال (٢٩٧) . وسوف يعنى ذلك تجاوز كافة الثنائيات التى تشكلت نتاج التباين والتناقض الذى تأسس كنتيجة لتقسيم العمل فى المجتمع البرجوازى ، كالتباين بين المدينة والريف وبين العمل اليدوى والعمل العقلى . وكنتيجة لذلك سوف لايصبح البشر بعد خاضعين لأخد فروع الانتاج مرتبطين به أو مستغلين بواسطته . سوف لايطورون بعد أحد ملكاتهم على حساب الملكات الأخرى ، وسوف يمتلك المجتمع ككل الصناعة التى سوف تنتج بالنظر الى افتراضها وجود كائنات بشرية متعددة الملكات ، حيث ينبغى ان تنمو ملكاتهم وفقا لأسلوب متوازن ، تكون قادرة فى اطاره على ادراك نظام الانتاج فى كليته . وبالنظر الى ذلك سوف يختفى من الوجود كلية شكل تقسيم العمل الذى يجعل من شخص فلاحا ، وآخر حدادا ، وثالث عاملا فى مصنع ، ورابع حارسا . سوف يساعد التعليم الصغار على ان يتكيفوا ونظام الانتاج الذى ينتقلون فى اطاره من فرع لآخر استجابة لحاجات المجتمع وليولهم الذاتية . وسوف يحميهم ذلك من الطبيعة ذات الجانب الواحد تلك التى يفرضها تقسيم العمل الرأسمالى ، وبهذا الأسلوب سوف يجعل المجتمع الشيوعى من الممكن ان يعمل أعضاؤه ملكاتهم الشاملة بشكل كامل (٢٩٨) . سوف يؤدى ذلك أيضا الى تحرير العمل من فكرة التخصص التى فرضت عليه فى اطار المجتمع الرأسمالى . ومن ثم يصبح فى امكانه تأسيس وانجاز نشاط متعدد الجوانب ، فكل انسان يستطيع ان يكون منجزا فى أى تخصص يرغب فيه . حيث ينظم المجتمع الانتاج العالم الذى يجعل من الممكن ان يعمل الانسان شيئا اليوم وآخر غدا ، ان يعمل صيادا فى الصباح ويصطاد السمك بعد الظهر ، ان يرعى الماشية فى المساء ، ويمارس النقد بعد العشاء (٢٩٩) . بذلك ينتهى اغتراب الانسان واختزاله ، ومن ثم العودة الى مشاعية انسانية عاقلة يصبح فيها تطور الجزء هو الأساس لتطور الكل .

ثامنا : النظرية الماركسية فى مواجهة متغيرات جديدة

الذى لاشك فيه ان النظرية الماركسية شكلت تحديا أساسيا لنظرية الغربية ، بحيث أثرت

على ملامح تطورها التاريخى اللاحق . من هنا وجدنا ان معظم رواد النظرية السوسيولوجية منذ ظهور الماركسية فصاعدا يتناولون ذات القضايا التى أثارها ماركس ، إلا أنهم وان بدأوا بداية واحدة هى مواجهة النظر الماركسية إلا أنهم يتباينون فيما بينهم من حيث تأسيساتهم النظرية فيما يتعلق بالقضايا موضع الحوار والمناقشة (٣٠٠) . غير انه رغم التحدى الذى فرضته الماركسية على النظرية الغربية فانها واجهت معضلتين : الأولى تتمثل فى عجزها لفترة طويلة عن تأسيس مجموعة من المقولات النظرية التى تعد امتدادا لمقولاتها الأساسية ، بحيث ظل التنظير فى ظل الماركسية مجرد ترديد لمقولاتها ، دون محاولة الاقتراب منها ، وهدد ذلك بأن تكتسب مقولات التغير الثورة متضمنات أيديولوجية محافظة . وظل الأمر على هذا النحو حتى ظهرت قوى اليسار الجديد والاتجاهات النقدية ، فقدمت بعض التطورات النظرية غير انها ظلت عاجزة عن تقديم الرؤية الكلية الشاملة فى طابعها العلمى والأيديولوجى كما فعلت الماركسية ، أو قدمتها ولكن على أرض ليست ماركسية . أما الثانية فتتمثل فى عجز قدرتها على التنبؤ بحركتها المستقبلية ويرجع ذلك لنوعين من العوامل والأسباب . النوع الأول يتعلق ببناء التنظير الماركسى كنموذج نظرى ، ويتعلق الثانى بمجموعة المتغيرات الواقعية التى طرأت على الواقع فدفعته الى السير فى اتجاهات خالفت التنبؤات الماركسية الى حد كبير .

وفيما يتعلق بعوامل المجموعة الأولى من المتغيرات ، نجد ان أول هذه العوامل يتمثل فى ان النظرية الماركسية قد جردت عن النظام الرأسمالى فى مرحلة نشأته حيث تفاعلاته لم تكن قد استقرت بعد . ومن ثم فملامحه البنائية لم تكن قد استقرت بعد ، واتخذت شكلها الواضح والمحدد . فنحن نعرف ان الماركسية هى النسق النظرى الذى شكل رد فعل نقدى للواقع الذى فجرته الثورة الصناعية (٣٠١) ، ومن ثم فنحن وان كنا نسلم بالطابع النقدى للماركسية ، إلا أننا قد نختلف مع استمرار ادعاء راديكاليتها بينما هى قد تخلفت كثيرا عن الواقع الذى أصبح أكثر شمولا منها . أما العامل الثانى فى اطار المجموعة الأولى فيتمثل فى أنه بينما ركزت الماركسية فى دراسة النظام الرأسمالى على الجانب المهنى للبناء الاجتماعى كمدخل لفهم البناء الطبقى . إلا أنها لم تحاول تحديد طبيعة توزيع الأدوار المهنية أما داخل البناء الطبقى بكامله أو داخل الشريحة الطبقية ، ثم طبيعة العلاقات الوظيفية المتبادلة بين هذه الأدوار ، والمراكز المهنية . فبدلا من ذلك وجدنا تركيزا متعمقا على النسق الرأسمالى كمشروع يسعى نحو الربح (٣٠٢) ، سواء عن طريق المنافسة والمضاربة فى السوق أو عن طريق فائض القيمة أو من

خلال تخفيض أجور قوى العمل والانتاج . من هنا فاذا كان للماركسية جوانبها موضع التركيز فى البحث والدراسة ، فانه كان من الممكن ان تكون نظرية سوسيولوجية من الدرجة الأولى اذا هى قد استوعبت هذه العناصر التى ركزت عليها كثيرا النظرية الغربية فيما بعد ذلك .

ينتقد تالكوت بارسونز ماركس أيضا من حيث تناوله البناء الاجتماعى والاقتصادى للمشروع الرأسمالى كوحدة غير قابلة للتجزئة بدلا من تحليلها الى عناصرها الأساسية المتميزة والمتضمنة . حيث ان هذا التحليل تعتبر من المسلمات الأساسية لتوفير الفهم السوسيولوجى الحديث (٣٠٣) ، غير اننا لانوافق كثيرا تالكوت بارسونز فى هذا الصدد . فليس مطلوبا من كارل ماركس – وهو الذى رفض الجوانب التجزيئية فى الوضعية – أن يمارس تحليله وفقا لخطوطها ؛ هذا بالاضافة الى ان أكثر التحليلات دقة والتزاما وردت فى النظرية الماركسية ، حيث تحرك ماركس بعبقرية فذة على مستويات الجدل المنهجى ، والفرضيات العينية والتفصيلات الواقعية بقدرة ليس لها نظير . هذا الى جانب التزام تحليل كارل ماركس بالكلية البنائية خوفا من الاستغراق فى الجزئيات على الطريقة الوضعية بما يهدد بافقاد الباحث الرؤية النقدية لواقعه .

بالاضافة الى ذلك ينتقد تالكوت بارسونز كارل ماركس حول بساطة رؤية الأخير للصراع الاجتماعى واختزاله على مستوى الصراع الطبقى فقط . أولا لأن الوحدة الطبقية لاتكون دائما بالوضوح الحاسم الذى طرحه ماركس . فالبرجوازية مثلا لا تشكل وحدة طبقية متماسكة وصلبة على النحو الذى ورد فى التنظير الماركسى ، حيث تنقسم واقعيا الى أقسام عديدة . فمثلا هى تنقسم الى جماعتين ، كتلك المالكة لثروة الأرض ، وتلك المالكة لثروة رأس المال ، حيث تؤكد أى من هذه الجماعات بسط سيطرتها على حساب اخضاع الأخرى (٣٠٤) . بل اننا نلاحظ داخل طبقة الفلاحين ، الفلاحين المحافظين الذين يرغبون فى دمج ملكياتهم الصغيرة ، وهناك الفلاحون الأكثر ارتباطا بالمدينة والأكثر رغبة فى القضاء على النظام القديم ، وفى تاريخ فرنسا نجد ان الأولى أيدت نابليون ، بينما عبرت الأخيرة عن مصالحها من خلال البروليتاريا المنظمة (٣٠٥) . والحق ان القول بعدم الوضوح الواقعى للخطوط الطبقية ، قول جانب بارسونز فيه الصواب كثيرا ، اذ ان معالجات ماركس للمسألة الطبقية تمت على مستوى التجريد النظرى بحثا عن تحقق المنطق الجدلى ، وفاعلية القوانين الحتمية ، ومن شأن التجريد

ان يغفل كثيرا التفاصيل الواقعية التى قد تميع رؤية الخطوط الطبقية الواضحة . أما فيما يتعلق بتبسيط ماركس للصراع الاجتماعى فنجد ان بارسونز يدعى ان النظام الرأسمالى متخم بأنواع متعددة من الصراع (٣٠٦) . غير ان هذا الادعاء مردود عليه ، لأننا قد نجد كل أنواع الصراع فى اطار النظام الرأسمالى وخاصة بداية نضجه ، لكنه فى حالة اكتماله فاننا نجد ان الصراع يستقطب أساسا حول الصراع الرئيسى وهو الصراع الطبقى الذى يدور حول مصالح متباينة لجماعات متناقضة .

أما المجموعة الثانية من العوامل فتتعلق بتلك المتغيرات الواقعية الجديدة التى طرحت تحديا على النظرية الماركسية فأفسدت كثيرا من تنبؤاتها . فى اطار ذلك نجد ان أتكنسون D.Atkinson يؤكد ان كارل ماركس قد صاغ نظريته كسياسى ملتزم ، ومن ثم فهو لم يهتم أو لم يجد الوقت لاجراء بعض التعديلات فى مقولاته النظرية بحيث أنه لو فعل ذلك لاكتشف الدلالة أو الأهمية النظرية لبعض الحقائق الامبيرقية التى نلاحظها الآن (٣٠٧) ، والتى أدت الى التقليل من صدق عدد من التنبؤات الماركسية . من هذه التنبؤات غير المتحققة أن الثورة البروليتارية لم تقع كما ذهبت الماركسية فى المجتمعات الصناعية ، اذ وقعت الثورة الروسية فى أقل المجتمعات الرأسمالية تطورا ، ووقعت الثورات الصينية والكوبية والأفريقية فى ظل ظروف ونماذج مجتمعية متباينة (٣٠٨) . بالاضافة الى ذلك نجد ان المجتمعات الصناعية المتقدمة قد تضمنت تغيرا كيفيا – عن النموذج الماركسى – فيما يتعلق بالمستقبل القريب (٣٠٩) ، حيث يتمثل التغير الكيفى الذى تضمنته المجتمعات الرأسمالية المتقدمة فى ظهور مجموعة من العناصر الجديدة داخل البناء الاجتماعى كالاتفاق العام حول أهداف قومية شاملة أو سياسية واجتماعية متفق عليها ، كذا انهيار التعددية Pluralism وانصهار جدل الأعمال والعمال فى بوتقة الدولة القومية ، بحيث أصبح ذلك شاهدا على تكامل المتناقضات حيث يعتبر ذلك مقدمة أساسية لكل انجاز مثل اعتباره نتيجة له (٣١٠) . فى اطار ذلك لم تصبح الثورة البروليتارية هى الفعل العقلانى الوحيد لتحقيق مصالح البروليتاريا والقضاء على مفاسد النظام البرجوازى ، وانما ظهر مايمكن ان نسميه بالأسلوب أو الثورة الديموقراطية . بل ان ماركس يتفق مع ذلك حينما يؤكد انه قد تبرهن بشكل شامل ومؤكد أنه من المستحيل ان نكسب التحول الاجتماعى كما حدث فى ١٨٤٨ بواسطة هجمة بسيطة ومفاجئة فى فرنسا أو فى أى مكان آخر (٣١١) . حيث يعتبر التصويت والانتخاب العام ، والديموقراطية الاجتماعية ، أو الليبرالية طريقا جديدا للنضال البروليتارى

الفعال . أما التمرد والثورة وفقا للاسلوب البروليتارى القديم . أى أن النضال فى الشوارع من خلف المتاريس لحسم كل شئ ، قد أصبح الى حد ما أسلوبا قديما ومهجورا (٣١٢) . خلاصة القول ان هناك أسلوبين واقعيين لتحقيق الثورة البروليتارية أولهما من خلال الديموقراطية الاجتماعية ، حيث تفتح البرجوازية عن غير قصد الطريق السلمى والبرلمانى للاشتراكية الثورية، قد يحدث ذلك فى المجتمعات الأكثرتقدما كانجلترا ، وفرنسا والولايات المتحدة . أما فى المجتمعات الأخرى حيث نجد ان الدولة والنظام البرلمانى على تحالف قوى مع البرجوازية ، ومن ثم فانها على هذا النحو تخلق الوضع الذى تتعرض فى اطاره للاطاحة بها من خلال العنف الثورى .

مراجع الباب الثانى

1. Easton, Loyd. D & Kurt H. Guddat : Writting of the Young Marx on Philosophy and Society. New York. 1967. P, 39.

2. Bottomore, T. B. : Karl Marx Early Writings. New York. 1964. P, 63.

3. Easton & Guddat : Op, Cit. pp, 214-215.

4. Alkinson, Dick : Orthodox Concensus and Radical Alternative. Astudy in Sociological Theory. Heinmann Educational Books. London. 1972. pp, 45 52 .

(٥) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٢٠٩.

6. Easton & Guddat : Op, Cit. pp, 40 - 50)

7. Ibid. p, 43.

8. Leszek Kolakowski : Karl Marx and the Classical Difinition of Trut in L. Labedz : Revisitionism, Essays on the History of Marxist Ideas. New York. 1962. pp. 179-187.

9 Tucer, Rober, C : Philosophy and Myth in Karl Marx. Cambridge. 1965. pp, 31-69.

(١٠) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ٢١١.

(١١) نفس المرجع : ص ص ٢٥٥-٢٥٧.

(١٢) زكريا ابراهيم : هيجل، أو المثالية المطلقة ص ١٥٧.

13. Marx, K. : Capital. Vol. 1. Moscow. foreign Languages Publishing House. 1954. p, 20.

(١٤) هربرت ماركيوز : مرجع سابق ٢٩٤.

15. Giddens. A : Capitalism and Modern social Theory, An analysis of the Writtings of Marx, Durkheim and Max Weber. Cambridge University Press. London. 1971. p. 21.

16. Ibid. p, 5.

17. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 488-489.

18. Ardent, Hannah : The uman Construction. New York. Anchor Books. 1959. p, 365.

19. A. Giddens : Op, Cit. pp. 3-4.

20. Easton & Guddat : Op, Cit. p, 401.

(٢١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٢٦٥.

(٢٢) نفس المرجع السابق . ص ٢٦٥.

23. Easten & Gddat : Op, Cit. p. 401.

(٢٤) هررت ماركيوز : مرجع سابق . ص ص ٢٦٥-٢٦٦.

(٢٥) نفس المرجع . ص ٢٦٨.

26. Marx & Engels : The German Ideology. 1965. London. pp, 38-39.

27. Lichtheim, George : From Marx to Hegel-New York. Herder & Herder. 1971. p, 53.

28. Smart, Barry : sociology; Philosophy and Marxian Analysis. Acritical Discussion o the Theory and Practice o Social Sciences of Society. Routledge & Kegan Paul. London. 1976. p, 65.

29. Hortor, Hohn : Order and Conflict Theories of Social Problems as Competing Ideologies. Amer, Jour, of Sociology. Vol. 71. May 1900.

30. T. Parsons : The Struction Rocial Action . p, 489.

31. Marx & Engels : The German ideorogy.

32. Marx. K : Pre-Capitalist Economic Formation. London. 1964. p, 95.

33. Ibid. p. 81.

34. Bottomore, T. B : Karl Marx, Early Writtings. p, 147

35. Marx & Engels : Selected Works. Moscow. 1958 Vol. 1. p, 89.

36. G. H. Sabine : Op, Cit. p, 417.

37. T. B. Bottomore : Karl Marx, Early Wrttings. pp, 137-138.

38. Ibid. pp, 120-121.

39. Ibid. p, 69.

(٤٠) هربرت ماركيوز : مرجع سبق. ص ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٤٤) نفس المرجع : ص ٢٠٨.

(٤٥) نفس المرج : ص ٢٠.

(٤٦) نفس المرجع : ص ٢٠٩.

(٤٧) نفس المرجع : ص ٢١٠.

48. Marx & Engles : The German Ideology. pp, 38-39.

(٤٩) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٣١٠.

(٥٠) زكريا ابراهيم : هيجل والثالية المطلقة. ص ١٢٦.

(٥١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٨٩.

(٥٢) نفس المرجع : ص ١٢٦.

53. Mac-Kenze, N : A Guide to Social Sciences, ed, Weidefeld and Nicolson, 1968. p, 20.

(٥٤) زكريا ابراهيم : مرجع سابق : ص ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٥٥) هربرت ماركيوز : مرجع سابق : ص ٢٦٨.

56. Marx & Engels : The German Ideology . p, 21.

(٥٧) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٢٨٢.

(٥٨) نفس المرجع . ص ٢٨١.

(٥٩) نفس المرجع . ص ٢٧٩.

(٦٠) نفس المرجع . ص ٣٠٥.

61. Easton & Guddat : Op, Cit. p, 402.

62. Ibid. p, 401.

63. Mcleish, John : The theory of Social Change & (Four Views Considered). London. Routtedge & Kegan Paul. 1968. p, 8.

64. Ibid. p, 8.

64. Ibid. p, 9.

(٦٦) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ص ٢–٣.

67. A. Giddens : Op, Cit. p, 20.

(٦٨) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ص ٣٠٤ – ٣٠٥.

(٦٩) نفس المرجع : ص ٣٠٦.

(٧٠) نفس المرجع : ص ٣٠٧.

71. Jordan, Z. A : The Evolution of Dialectical Materialism. London 1967. p, 89.

72. Giddens, A. : New Rules of sociological Metod. A Positine Critique of Interpratative Sociologies. Hutchinson of London. 1976. p, 100.

(٧٣) محمد على محمد : مرجع سابق . ص ص ٢٢٧ – ٢٢٨

74. A. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. pp. 55-59.

75. A. Giddens : New Rules o sociological Method. p, 99.

76. Bendix, R : The Image o Man in Social Sciences : Basic Assumptions of Present Day Research. in Lipest, S. M. and Smelser, N. (ed) Sociology, The Progress o A Cecade. Englewood Cliffs. Prentice - Hall. 1961. p, 89.

77. Lichtmann, Richard : Indeterminacy in the Social Sciences. Inquary. vol. 10. 1967. pp. 371-378.

78. T. Parsons : The Structure of social Action. p, 495.

79. Ibid. p. 482.

80. Ibid. pp, 493-494.

81. Althusser., Lous : for Marx. New York. Vintage Books. 190. p, 111.

82. Kloskowska, Antonina : The Conception of Culture According to Karl Marx. The Polish Sociological Bulletin. No. 1. 1970. pp, 5015 esp. p. 7.

(٨٣) هربرت ماركيوز : مرجع سابق : ص ٢٦٤.

105. T. B. Bottomore & Other : Op, Cit. pp, 83-84.

106. T. Parsons : Essays in Sociological Theory. p, 327. and See also. K. Marx. Capital Vol. . p, 346.

107. T. Parsons : The Structure of Social Action. pp, 491-492.

108. paci, Enzo : The Function of the Social Sciences and the Meaning of Man. Evanston, 1972. p, 113.

109. T. B. Bottomore : Karl Marx. Early Writtings. p, 166.

110. Marx & Engels : The German Ideology. p, 31.

111. Ibid. p 49.

112. T. B. Bottomore : Op, Cit. pp. 122-123.

113. Ibid. p, 123.

114. Ibid p, 122.

115. Ibid. p, 143.

116. Ibid. p, 179.

(١١٧) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ص ٢٩٧-٢٩٨.

(١١٨) نفس المرجع . ص ٢٦٧.

(١١٩) نفس المرجع . ص ٢٧٢.

(١٢٠) نفس المرجع : ص ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(١٢١) نفس المرجع : ص ٢٧٤.

122. Marx & Engels : German Ideology. p, 61.

(١٢٣) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى. ص ص ٢-٣٨.

124. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p, 169.

125. K. Marx : Capital. pp, 320-352.

126. Ibid. pp, 324-325.

127. Ibid. p, 322.

128. Ibid p, 324.

129. Ibid. p, 336.

130. Ibid. pp, 336-339.

131. Ibid. p, 346.

132. d. Atkinson : Op, Cit. p, 42. and See also Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 104.

133. K. Marx : Capital pp, 352-353.

134. & Engels : The German Ideology. p, 18.

135. K. Marx : Wage Labor and Capital in Marx & Engels : Works. p, 83.

136. J. Mcleish : Op, Cit. p, 8.

137. Marx & Engels : German Ideology. p, 31.

138. Marx & Engels : Selected Works. p, 147.

139. K. Marx : Capital. p, 19.

140. D. Atkinson : Op, Cit. p, 34.

141. Ibid. p, 34.

142. K. Marx : Copital. Vol. 1. p, 322.

143. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p. 334.

144. A. Giddens : Op, Cit. p, 39.

145. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 322.

(١٤٦) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ١٣٥.

147. a. Gidcens : Op, cit. p, 39.

148. Marx & Engels : Selected Works. vol. 1. p. 334.

(١٤٩) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٣٩٦.

(١٥٠) نفس المرجع : ص ٣٩٧.

151. Hodges, Donald : Intermediate Classes in Marxian Theory Research. Vol. 28. 1961. pp. 241-252.

152. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p. 216.

153. K. Marx : Capital, vol. 3, p, 376. and See also Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 140.

154. Marx & Engels : Selected Works : Vol. 1. p, 155.

155. t. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p, 187.

156. K. Marx : Capital. Vol 3. p, 862.

157. D. Atkinson : Op, Ct. p, 44.

158. bid pp, 48-49.

159. t. Parsons : Essays n Sociological Teory p. 326.

160- Irving Zeitlin : Op, cit. p, 100.

(١٦١) هربرت ماركيوز : نفس المرجع : ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(١٦٢) نفس المرجع : ص ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

(١٦٣) نفس المرجع : ص ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٦٤) نفس المرجع : ص ٣٠٠.

165. Marx, K : Economic and Philosophical Monuscripts of 1844. Moscow. Foreign Publishing House. 1961. p, 30.

166. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 49.

167. d. Atkinson : Op, Cit. p, 49.

168. Irving Zeitlin : Op, Cit. p, 100.

169. K. Marx : the Copital . Vol. 1. pp, 322-326.

170. K. Marx : Economic and Philosophical Manuscripts. p, 70.

(١٧١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٣٠٥.

172. D. Atkinson : Op, Cit. p, 51.

173. Percy Cohen : Op, Cit. p, 76.

174. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 19.

175. J. Mcleish : Op, cit. pp, 6-7.

176. d. Atkinson : Op, Cit. p, 46.

177. Marx & Engels : German Idcology. p, 61.

178. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 363.

179. Marx & Engels : Germa Idcology. p, 473.

180. A. Giddens : Capitalism and Modern social Theory. pp, 40-41.

181. D. Atkinson : Op, Cit : p, 51.

182. A. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. p. 40.

183. D. Atkinson : Op, Cit. p, 45.

184. Ibid. pp, 45-47.

(١٨٥) محمد على محمد : مرجع سابق : ص ص ٢٢٦-٢٢٨.

186. Irvi g Zeitlin : Op, Cit. p, 85.

187. Ros nthal, M & P. Yadin (ed) : A Dictionary of Philosphy. Moscow. 1967. p, 15.

188. A. Cdens : Capitalism and Modern Social Theory. p. 4.

189. Irvi: g Zeitlin : Op, Cit. p, 85.

190. Harris, s.C. : Conceptual Analysis of Alienations. columbia University Press. 1955. p, 75

191. J. O'Neil : Sociology as a Skin Trade. p. 112.

192. Bell Daniel : The Rediscovery of Alienation. The Journal of Philosophy. vol. Lvi. No. 24. Nov. 195. pp, 933-952.

193. Marx : Econoiç and Philosophic Manuscripts. p. 30.

194. d. Atkinson : Op, Cit. p, 36.

195. Ibid p, 34.

(١٩٦) ماركس ، انجلز : البيان الشيوعى. ص ص ١١، ١٨.

197. d. Atkinson : Op, Cit. p, 34.

198. a. giddens : Capitalism and Modern social Theory, p, 30.

199. Ibid p, 13.

200. Ibid p, 12, and See also. Marx : Capital. vol. 1. p, 342. Marx : Capital . vol. 1. p, 342.

(٢٠١) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ١٧٠ وانظ أيض

202. Marx & Engels : Early Writtings. pp, 123-124.

203. Ibid p, 125.

(٢٠٤) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٢٧١.

(٢٠٥) نفس المرجع . ص ٢٧٢.

206. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts. p, 119.

207. irving Zeitlin : Op, cit. p, 104.

208. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 338.

209. Ibid. p, 339.

210. Ibid. p, 349.

211. Ibid. p, 360.

212. Ibid. pp, 361-368.

213. Ibid. p. 326. and See also Marx & Engels : Economic and Phiosophic Manuscripts 1844. p, 117.

214. K. Marx : Capital . Vol. p. 341.

215. d. Atkinson : Op, cit. p, 34.

(٢١٦) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى، ص ص ١١ ،١٨.

217. K. Marx : Capital. vol. 1. p, 326.

(٢١٨) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى. ص ٤٣.

(٢١٩) نفس المرجع : ص ٤.

(٢٢٠) هربرت ماركيوز : مرجع سابق. ص ٢٧٢.

221. Marx & Engels : Early Writtings. pp. 43-44.

222. T. Parsons : The Structure of Social Action. p, 49.

223. T. parsons : Class and Class Conflict in Essays in Sociological Theory p, 32.

224. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 363.

.225. Marx & Engels : Germa Ideology. p. 42.

226. K. Marx : Critique of Political Economy pp. 11-13.

227. John Mcleish : Op, Cit. p, 5.

228. Ibid. p, 13.

229. K. Marx : The Eighteenth Brumaire of Louis Napoleon p, 123.

230. Ibid, p, 124.

231. T. B. Bottomore & M. Rubel : Op, Cit. p. 187.

233. Ibid. pp, 48-49.

234. Ibid p. 43.

235. Ibid p. 44.

236. Dah endorf, R. : Class and Class Conflict in an Industrial Society. routledge & Kegan Paul. 1957. p. 17.

237. D. Atkinson : Op. Cit. p. 45.

(٢٣٨) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ٤٩.

(٢٣٩) نفس المرجع . ص ص ٤٧-٤٨.

240. D. Atkinson : Op. Cit. p. 35.

241. Ibid p. 36.

242. Ibid p. 37.

243. T. B Bottomore & M. Rubel : Op. Cit. p. 97.

244. Marx & Engels : German Ideoogy. p. 7.

245. Lichtheim, George : Phenomenology and Social Reality (ed). in memory of Alfred Schutz. The haugh : Martinus Nijboff. 1970. p. 77.

246. Plummer, Herbert : Symbolic Interactionism : perspective and Method. Englewood Cliffs N. J. Prentice-hall. 1969.pp. 184-185.

247. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts. pp. 156-157.

248. Marx & Engels : German Ideology. p. 32. and See also Mrx & Engels : Early Writtings. p. 166.

249. Marx : Capital. Vol. 1. pp. 338-339.

250. J. Maleish : Op. Cit. p. 10.

251. Ibid. p. 3.

252. T. B Bottomore & M. Rubel : Op. cit. p. 97.

253. T. Parsons : The Structure of Social Action. p. 492.

254. K. Marx : Economic and Philosophic Manuscripts. p. 70.

255. Ibid pp. 72-73.

256. J. Mcleish : Op, Cit. p, 5.

(٢٥٧) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ٥٢<

258. d. Atkinson : Op, cit. p, 4.

259. J. Mcleish : Op, cit. p, 13.

260. K. Marx : Capital. Vol. 1. pp, 533-534> AND See also Marx & Engels : The German Ideology. p, 22.

261. habermas, Jurgen : Towards a Reconstruction of Historical Materialism . Theory and Society - Vol. 2. 1975. pp, 287-300. esp. 291.

262. K. Marx : Capital. voo. 1. p, 20.

(٢٦٣) هربرت ماركيوز : مرجع سابق . ص ٢٦.

264. Ardent, Hannah : The Human condition. New York. Anchor Books. 1959. p. 365.

265. K. Marx : Capital. Vol. 3. p, 251.

266. Ibid. p, 229.

267. Ibid. p, 230.

268. Ibid. p, 252.

269. Ibid. p, 244.

270. Ibid. p, 245.

271. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 632.

272. Marx & engels : Selected Works.

273. K. Marx : Capital. vol. 1. p, 645.

274. Ibid. p, 626.

275. K. Marx : Capital vol. p. 59.

276. Ibid. p, 429.

277. Ibid. p, 429.

(٢٧٨) ماركس وانجلز : البيان الشيوعى . ص ٤٧.

(٢٧٩) نفس المرجع : ص ٤٩.

(٢٨٠) نفس المرجع : ص ٥٣.

(٢٨١) نفس المرجع : ص ٤٩.

282. D. Atkinson : Op, Cit, p, 40.

283. J. O'Neil : Op, Cit, p, 127.

284. Irv.ng Zeitling : Op, Cit. p, 100.

285. Ibid, p, 108.

(٢٨٦) ماركس وانجلز : البيان الشيوعى . ص ٨٦.

287. Irving Zeitlin : Op, Cit, p, 108.

288. Marx & Engels : Selected Works. Vol. 1. p, 454.

289. a. Giddens : Capitalism and Modern Social Theory. pp, 60-61 and See also Marx : Copital. vol. 1. p, 80.

وأنظر كذلك البيان الشيوعى : ماركس، انجلز . ص ص ٥٦-٥٨.

290. Marx & Engels : Seleted Works. vol. 2. p, 23.

291. Ibid. p, 24.

وأنظرأيضا ماركس، انجلز : البيان الشيوعى ص ٦٠

(٢٩٢) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى . ص ص ٦٢-٦٣.

(٢٩٣) نفس المرجع . ص ٦٣.

294. Marx & Engels : Selected Works. vol. 2. p. 32.

(٢٩٥) ماركس، انجلز : البيان الشيوعى ص ١٦.

(٢٩٦) نفس المرجع : ص ٦٧.

297. K. Marx : Capital . vol. 1. p, 422.

298. K. Marx : Capital . vol. 1. pp, 533-534.

299. Marx & Engels : German Ideology. p, 22.

300. T. Parsons : Essays Sociological Theory. p. 324.

301. Ibic p, 325.

302. Ibid. p. 324.

303. Ibid. p, 324.

304. Marx : The Eighteenth Brumaire of Lois Napoleon p, 48.

305. Ibid. pp, 120-125.

306. T. Parsons : Essays in Sociological Theory. pp, 329-331.

307. d. Atkinson : Op. Cit. p, 52.

308. Ibid. p, 56.

(٣٠٩) هربرت ماركيوز : الإنسان ذو البعد الواحد . ص ٧.

(٣١٠) نفس المرجع . ص ١١١.

311. Marx & Engels : Collected Works. Lowrence & Wishart. 1962. p, 125.

312. Ibid. p, 130.